الدر النضيد
من
محاضرات العقيدة والتوحيد

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى لـ :

دار الإمام أحمد
للنشر والتوزيع والصوتيات

ويُحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد
الكتاب كاملا أو مُجزأ أو تسجيله على أشرطة
كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على
إسطوانات ضوئية إلا بموافقة خطية من المؤلف

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

١٦٦٧١ / ٢٠٠٧ م

مجالس الهدى للإنتاج والتوزيع الجزائر

08. شارع السيدة الإفريقية - باب الوادي - الجزائر هاتف: 00 77 96 021/12 63 96 021 فاكس: 00 61 96 021

موقعنا على الإنترنت: http://www.madjaliss.com

البريد الإلكتروني: E-mail : bareed@madjaliss.com

دار الإمام أحمد

٦ شارع عزيز فانوس - منشية التحرير - جسر السويس - القاهرة

هاتف: ٠٠٢٠٢/٢٢٤١٤٢٤٨ تليفاكس: ٠٠٢٠٢/٢٦٣٦٥٦٣٨ جوال: ٠٠٢/٠١٠٦٠١٤٩٧٨

E-Mail:Dar_Alemam_Ahmad@yahoo.Com

الدر النضيد
من
محاضرات العقيدة والتوحيد

إعداد

فضيلة الشيخ العلامة

ربيع بن هادي عمير المدخلي

رئيس قسم السنة بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية "سابقاً"

مجلس السلف للنشر والتوزيع

دار الإمام أحمد

بسم الله الرحمن الرحيم

أهمية التوحيد

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمدَ للَّه نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسنا ومن سيِّئاتِ أعمالنا، من يهدِهِ اللَّهُ فلا مُضِلَّ له، ومن يُضْلِلْ فلا هادي له، وأشهد أن لا إلهَ إلَّا اللَّهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمّدًا عبدُه ورسولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠- ٧١].

أمَّا بعد: فإنَّ أصدقَ الحديثِ كلامُ اللَّه، وخيرَ الهدي هديُ محمَّدٍ ﷺ، وشرَّ الأمورِ محدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النَّار.

أمَّا بعد:

فَيُسْعِدُني أن أتكلَّمَ في موضوعٍ مهمٍّ لا يبلغُه موضوعٌ آخر ولا يقاربُه في الأهمِّية، وهو موضوعُ التوحيد وأهميتُه الذي يقول فيه الإمامُ ابنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «التوحيدُ سرُّ القُرآن، ولبُّ الإيمان».

ويقول الإمامُ ابنُ القيِّم - رحمه اللَّه تعالى - بعد أن تكلَّم عن عقائدِ أهلِ الضَلال، من أهلِ الاتحاد - دعاةِ وَحْدَةِ الوجود - والجهمية والمعتزلة وغيرهم من الفرقِ الضالة قال: «إنَّ التوحيدَ الذي جاءت به الرسل، ونزلت به الكتب فشيءٌ وراءَ ذلك كلِّه...».

ثم قال: «التوحيدُ نوعان: توحيدٌ في المعرفةِ والإثبات وتوحيدٌ في الطلبِ والقصد، فالنوعُ الأوَّل: توحيدُ المعرفةِ والإثبات؛ فهو حقيقةُ ذاتِ الرَّبِ وأسمائِه وصفاتِه، وأفعالِه، واستوائه فوق سمواتِه على عرشِه ﷻ، وإثباتُ عمومِ قضائه وقدرِه وحكمِه،

وقد أفصحَ القرآنُ عن ذلك جِدَّ الإفصاح كما في أوَّلِ سُورةِ الحديد وأوَّلِ سورة طه وآخرِ سورة الحشر وأوَّلِ سُورة آل عمران وغيرِ ذلك من السُّور التي تضمَّنت هذا النوعَ من التوحيد، وأما النوعُ الثاني فهو ما تضمنته سُورةُ الإخلاص و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وما تضمنهُ قولُ اللَّه -تبارك وتعالى-: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤]، ومثل ما تضمّنته أوَّلُ سُورةِ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وجملةُ سورةِ الأنعام وأوَّلُ سُورةِ الأعراف وآخرُها، بل غالبُ القرآنِ في التوحيد، بل القرآنُ كلُّه في التوحيد، وذلك أنَّ القرآنَ إمَّا خبرٌ عن اللَّهِ وأسمائِه وصفاتِه وأفعالِه، فذلك هو التوحيدُ العلميُّ الخبري وإمَّا دعوةٌ إلى عبادتِه وحدَه ﷻ، وخَلْعِ ما يُعْبَدُ من دُونِه، فهو توحيدُ الطلبِ والقصد، وإمَّا أمرٌ ونهيٌ وإلزامٌ بطاعته في أمرِه ونهيِه، فذلك من مكمِّلاتِ التوحيد، وإمَّا خبرٌ عن أوليائه، وما كافأهم به في الحياة الدنيا وما يجزيهم به في الآخرة، فهذا جزاءٌ على التوحيد، وإما خبرٌ عن أهل الشرك وما نَزَل بهم من النَّكالِ في الحياة الدنيا، وما يَحِلُّ بهم من العقابِ في الأخرى، فذلك جزاءُ من خَرَج عن حُكمِ التوحيد، فالقرآنُ كلُّه في التوحيد، وفي أهلِه وجزائِهم وفيمن خالفَ التوحيدَ من أهل الشِّرك وجزائِهم، فأعاد القرآنَ كلَّه للتوحيد».
وهذا يدلُّ دلالةً عظيمة جدًّا على أهمية التوحيد، ولا يَعرِف هذه الأهمية الكبيرة العظيمة إلَّا أئمةُ التوحيدِ من الرُّسُلِ الكرام أولي العدل وغيرهم، ولا يعرفه إلَّا من حذا حذوهم في الاهتمام بهذا التوحيد والدعوة إليه.

ذلكم أن اللَّهَ -تبارك وتعالى- ما خَلَقَ السَّموات والأرض والجنَّ والإنس والجنَّة والنار، وشرع الجهادَ، وكثيرًا من الأمور العظيمة، كلُّ ذلك من أجل هذا التوحيد، وعلى رأسِ التوحيد كلمةُ التوحيد - لا إله إلَّا اللَّه - على لسان كلِّ رسول وعلى لسان كلّ نبي، ويلهج به الملائكة الكرام.

ويكفينا قولُ اللَّه -تبارك وتعالى-: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨]، فبيَّن لنا أنَّه لم يخلقنا لغرضٍ من الأغراض - جلَّ وعزَّ وتَنَزَّه عن ذلك- وإنَّما خَلَقَنَا لعبادته، هذا الربُّ العظيم الجليلُ الكبير الذي لا نستطيع أن نصفَه ولا نُخبر عن وصفه إلَّا بما

أخبر به هو - تعالى وتقدَّس - عن نَفْسِه.

وأُحِبُّ أن أقرأ بعضَ الآيات التي تُنَوِّهُ عن عظمةِ اللَّه ﷻ وجلاله وعظمتِه، وأنَّه سيِّدُ هذا الكون وربُّه والمسيطر عليه من أجل ذلك هو يستحقُّ العبادة وحدَه ﷻ، وأن يُخْلَصَ له الدِّين، ولا نستطيع أن نُعَبِّرَ عن هذا الشيء، ولكنَّنا نستوحي آياتٍ من القرآن تدلُّ على عظمةِ ربِّنا الجليل العظيم الذي يستحقُّ هذه العبادة ويستحقُّ أن نذل له، وأن نخضع له، وأن نستحييَ منه ﷻ قال اللَّه -تبارك وتعالى- : ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ هذه من صفات عظمته وجلاله ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ۝١١ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ۝١٢ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ شديدُ الأخذ، شديدُ البطش ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ وحده ﷻ ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ۝١٤ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ۩﴾.

هنا نقف خاشعين أمام عظمة اللَّه -تبارك وتعالى- التي صرحت بها هذه الآيات، فاللَّه العظيم، الجليل، الكبير، العالم بكلّ شيء الذي لا يخفى عليه شيء، ولا يقف في وجه إرادته شيء ﷻ، ويخضع له من في السَّموات والأرض، وتخضع له الملائكة ﷻ وأنا لا أستطيع أن أعبِّر....

والمقام لا يتسع لتفسير هذه الآيات، ولكن قد يكفيكم أن أقرأها عليكم وآياتٍ أخرى في هذا المعنى، تدلُّ على جلالِ اللَّه وعظمتِه وعزَّتِه وكبريائِه وعلياءِ ﷻ الذي تتضاءل كلُّ عظمةٍ وكلُّ جلالةٍ أمامَ عظمته، بل ليس هناك جلالةٌ وعظمةٌ أمام عظمةِ هذا الواحد القهار المعبود بحقٍّ ﷻ الذي قال ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ [الحج: ١٨] سبحانه وتعالى، كلُّ شيء يسجد له ويخرُّ خاضعًا ذليلًا لعظمته، الملائكة والأشجار والسموات والأرض ومن فيها، وعظمة المخلوقات مهما بلغت من عظمة تتضاءلُ أمام عظمتِه.

هذا الربُّ الذي يدعو الأنبياءُ إلى عبادته ﷻ يدعون الأممَ الذين ذلُّوا أمام الأشجار والأحجار وأمام الجنِّ والشياطين، وتجاهلوا عظمةَ اللَّه -تبارك وتعالى- ، واستولى عليهم الشيطانُ وعبثَ بعقولهم في الماضي ولا يزال، هذا العدوُّ الألدُّ الذي حذَّر اللَّه -تبارك وتعالى- منه البشرية: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠- ٦١].

هذه دعوةُ الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- يدعون إلى عبادةِ هذا الربِّ العظيم ﷻ، والذي وصف نَفْسَهُ في كُتُبِه المقدّسة، ووصف نفسه في هذا الكتاب العظيم في الآيات والسُّور، بل في القرآن كلِّه؛ كما ذكر ذلك ابنُ القيِّم، ولعلِّي أقرأُ بعضَ الآيات التي أشار إليها ابنُ القيم؛ لتدلَّنا على عظمةِ اللَّه، وتدفعنا إلى محبتِه والخضوعِ له والإخلاصِ له وإجلالِه وتقديسِه والخضوعِ لجلاله ﷻ، في حين أصبح كثيرٌ من الناس يخضعون لبعضهم بعضًا أكثر مما يخضعون للَّه العليِّ الكبير، الذي خضع له كلُّ شيء، وذلَّ له كلُّ شيء ﷻ، فلا ينبغي للعبد أن يكون عبدًا إلَّا للَّه، ولا يخضع إلَّا لعظمته وجلاله ﷻ.

يقول اللَّه ﷻ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٣ - ٢٤].

سبق فيما نقلت لكم من كلامِ ابنِ القيم أنَّه لا تخلو آية إلا وهي متضمِّنَةٌ للتوحيد، انظر إلى هذه الآيات في آخر سورة الحشر، تضمنت توحيدَ الألوهية في قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ﴾، توحيد الأسماء والصفات في قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾، توحيد الربوبية في قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ﴾، فهذه الآيات القليلة في آخر سورة الحشر تضمنت كلَّ أنواعِ التوحيد، توحيد العبادة، توحيد الأسماء والصفات، توحيد الربوبية.

ويقول اللَّه -تبارك وتعالى- في أول سورة الحديد التي أشار إليها الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ١ - ٣]،

تضمنت أنواعَ التوحيد الثلاثة، فقوله ﷻ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خضع للَّه وعَبَدَ اللَّه، وهذا توحيد العبادة، وقوله تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هذا توحيد الربوبية، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ هذا توحيد الأسماء والصفات.

فالقرآن يحتاج إلى تدبُّر، وإلى عقولٍ واعية تعيه، وتعرف قدرَه، وقدرَ مُنْزِلِه - ربِّ السموات والأرض - هذا الرب العظيم، وقدر هذا الرسول العظيم الذي أُنزل عليه هذا القرآن، فَنَعْلَمُ هذا القرآن ونَعْمَلُ به بعد التدبُّر والتعقُّل والتفهُّم والإدراك الواعي لمرامي القرآن ومقاصدِه، خاصةً فيما يتعلَّق بذات الربِّ وأسمائِه وصفاتِه، وما يستحقُّه من العبادةِ والتقديرِ والتعظيمِ والإجلالِ والهيبةِ والخوفِ والحياءِ والمحبَّةِ والذُّلِّ إلى آخر أنواع العبادات التي نعرفها من هذا القرآنِ العظيم ومن سنَّةِ نَبِيِّنَا الكريم -عليه الصلاةُ والسَّلام-.

وقال اللَّه تعالى في آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] هذه الآية التي تعتبر أعظمُ آيةٍ في القرآن الكريم تضمَّنت كذلك توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات.

وقال اللَّه ﷻ في سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٤] تضمنت التوحيدَ العلمي الخبري، هذه السُّورة على وَجَازَتِها، قال الرسُولُ -عليه الصلاة والسلام- فيها: «إنَّها تعدلُ ثُلُثَ القرآن»[1]، هذا يقوله رسولُ اللَّه إمامُ أهل التوحيد، وأَعْرَفُ الناسِ بربِّه وأعلَمُهُمْ به، وأعلمُ الناسِ بهذا القرآن الكريم -عليه الصلاة والسلام-.

ونحن ليس عندنا تأمُّل ولا تدبُّر ولا تفهُّم، كيف تعدل ثلثَ القرآن؟!

قال بعضُ العلماء - ومنهم ابنُ تيمية -: «إنَّ القرآن ثلاثة أقسام: القسم الأول: في

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد اللَّه -تبارك وتعالى-.

الأحكام، والقسم الثاني: في الأخبار والقَصَص وما شاكل ذلك، والقسم الثالث: في التوحيد» وهذه - سورة الإخلاص - تضمَّنت كلَّ أنواعِ التوحيد:

توحيد الإثبات؛ إثباتُ الكمال بكلِّ أنواعه للَّه -تبارك وتعالى- ، وتوحيدُ التَّنْزيه؛ تَنْزيه اللَّه عن كلِّ عيبٍ ونقص؛ تعالى اللَّه وتبارك وتقدس وتَنَزَّه عن كلِّ نقص وله الأسماء الحسنى والصفات العلا.

وأمَّا التوحيدُ الثاني الذي يُفيدُ العبادة، القرآنُ مليءٌ به وما بُعِثَتِ الرُّسل من أوَّلهم إلى آخرهم إلَّا من أجله، وما شُرِعَ الجهادُ إلَّا من أجله، ولا الأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر إلا من أجله؛ لأنَّ توحيدَ الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات فَطَرَ اللَّهُ الناسَ عليه، فلا يُكابِرُون فيه ولا يُجادِلُون فيه؛ قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥].

وقال ﷻ: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس: ٣١].

فكانت الأممُ تنحرفُ وتَضِلُّ في توحيد العبادة، من أوَّل انحرافٍ بدأ في قوم نوحٍ إلى آخرهم، إلى قيام الساعة، أكثر ما يأتي الانحرافُ في هذا التوحيد، والشيطان يَجْلبُ بخيله ورَجِله على بني آدم، الذي آلى على نفسه ليغوينَّهم وليأتينَّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن شمائلهم، وقال - كما أخبر اللَّه عنه - : ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]، ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢]، فهو يركض في هذا الميدان أحرص ما يستطيع، ويكفيه أن يعبث بكثير من الناس أو أكثرهم ليصيِّرهم من عبيده، لأنهم يطيعونه في دعوته، ويلبُّون دعوته إلى الشرك باللَّه فيعبدونه؛ كما قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠ - ٦١].

فالضلال - كما قدَّمنا - يقع في هذا التوحيد الذي يمثل قسمًا كبيرًا من القرآن.

ومنها سورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ التي أشار إليها الإمام ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ هذه تسمَّى سورة الإخلاص الثانية، تلك - الأولى - تسمى سورة الإخلاص؛ لأنَّه أُخلص فيها

التوحيد، أي: توحيد الأسماء والصفات وهو التوحيد العلمي الخبري، وهذه أخلصت فيها العبادة للَّه ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [سورة الكافرون: ١ - ٦] فيه إثبات العبادة للَّه -تبارك وتعالى- والبراءة من عبادة غير اللَّه ومن العابدين لغير اللَّه، فهي سورة البراءة، وهي سورة الإخلاص، وهي سورة عظيمةٌ يجب أن نفهمها ونتدبَّرها لعظم شأنها، وعظم شأن ما شاكلها من السُّور والآيات في وجوب إفراد اللَّه - جلَّ وعلا - في العبادة، والبراءة من عبادة الطاغوت، وأشار ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى بعض الآيات وإلى بعض السُّور نذكر منها الذي يخطر بالبال الآن.

فمنها: سورة الزمر؛ قال اللَّه -تبارك وتعالى- في أولها: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ١-٣]، إلى هذا أشار الإمامُ ابنُ القيِّم، وإلى مثل قول اللَّه -تبارك وتعالى-: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾ [الزمر: ١٤]، وأشار إلى مثل قول اللَّه -تبارك وتعالى- تهديدًا للأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ - يعني: الأنبياء - ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، ثم أخبر عن حال المشركين به ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٥ - ٦٧]، هذا في توحيد العبادة، تهديدٌ لكلِّ نبيٍّ؛ فما من نبيٍّ إلا وجاءه الإنذار، وجاءه التهديد العظيم الذي -واللَّهِ- ترتجفُ قلوبُ المؤمنين حينما تتأمَّل وتسمع دَوِيَّه ودويَّ هذا الترهيب من اللَّه الذي شأنه أنَّ السموات مطوياتٌ بيمينه ﷻ، السموات والأرضُ جميعًا قبضتُه يومَ القيامة.

فالمسلمون يعبدون هذا الرَّبَّ العظيم الجليل، والنصارى واليهود والمشركون والقبوريون يَعْبُدون الأموات ويَعْبُدون البشر والأحجار، أيُّ عِزَّةٍ وأيُّ رفعةٍ تحصل للمسلم الذي لا يعبدُ إلا هذا الإلهَ العظيم! ولهذا يقول -تبارك وتعالى-: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، العزةُ للَّه ولأهل التوحيد؛ لأنهم لا يخضعون

ولا يحنون رءوسهم إلَّا للَّه، ولا يخافون ولا يرجُون ولا يَرْغَبُون ولا يَطْمَعُون إلَّا فيما عند هذا الإله العظيم الجبَّار الذي بيده كلُّ شيء، وكلُّ شيءٍ ملكُه، وكلُّ شيءٍ هو آخذٌ بناصيته ﷻ، فيجب على المسلم أن يقف خائفًا مرتعدَ الفرائص حينما يَذكرُ اللَّهَ وحينما يؤدي أيَّ عبادةٍ فليكن في المقام الذي أشار إليه الرسول -عليه الصلاة والسّلام - في مقام الإحسان: «**أن تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فإنْ لَمْ تكُن تَرَاهُ فإنَّه يَرَاكَ**»(١).

يتسع الحديث في شرح كلام ابن القيم، وعندي في الموضوع فقرات أحبُّ أن أنتقل إليها، ولكن أدعوكم إلى أن تقرءوا هذا الكلام، وهو في الجزء الثالث من «مدارج السَّالكين» (ص ٤٥٠) استفيدوا واستضيئوا به في معرفة التوحيد والآيات التي أشار إليها، وقوله في الأخير: إنَّ القرآنَ في التوحيد، ثم ذكر أنواعَ التوحيد وما يُكَمِّلُ التوحيد، استفيدوا من هذا الدرس.

هذه خلاصةٌ عظيمةٌ جدًّا، واللَّه نحن ما نصل إليها، ونعترف بالعجز، فنحن واللَّهِ نتتلمذُ على مثل هؤلاء الأئمَّة ونأخذُ منهم مثل هذه المفاتيح ونسيرُ في ضوئِها، نستفيد منهم في فهم كتابِ ربنا وسنَّةِ نبيِّنا -عليه أفضل الصَّلاة والسلام-، هذا التوحيدُ لأهمِّيته أنزل اللَّه من أجله الكتب، وأرسل به الرسل، وتحدث اللَّه عن قَصَصِ الأنبياء.

وأنا بجهدي الضعيف كتبت كتابًا اسمه «منهج الأنبياء في الدعوة إلى اللَّه فيه الحكمة والعقل» فإن شئتم فارجعوا إليه لتستفيدوا منه، بَيَّنْتُ فيه دعوةَ الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وأنه طريقٌ رسمهُ اللَّه لا تجوز الحيدةُ عنه يمينًا ولا شمالًا، فإنَّ الحيدةَ عن منهجِ الأنبياء في الدعوةِ إلى اللَّه حيدةٌ وانحرافٌ إلى الضلال والهلاك؛ لأنَّ هذا المنهج وضعه اللَّه -تبارك وتعالى- ورَسَمَهُ للأنبياء جميعًا من أوَّل رسولٍ نوحٍ إلى خاتَمِهم محمَّد -عليهم الصَّلاة والسَّلام-.

قال اللَّه ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، هذه الآية تقصُّ علينا كيف كان بدء دعوة الأنبياء -عليهم الصلاة

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة ﷺ، (خ/ كتاب الإيمان، باب سؤال النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان، وم/ كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان برقم٩).

والسلام- وما هي خلاصةُ دعوتهم -عليهم الصلاة والسلام-، وقد أَثْبَتُّ في هذا الكتاب وجوبَ التزامِ هذا المنهج بالأدلة من القرآن والسنَّة والفطرة والعقل، وأنَّ الدَّعوات التي لا تبدأ بالتوحيد ولا تنطلق من التوحيد قد حادت عن منهج اللَّه، واختارت طرقَ الضلال والهوى، وانحرفت بالمدعوّين عن صراط اللَّه المستقيم.

كلُّ الدعوات الموجودة الآن على وجه الأرض إذا رَسَمَت لنفسها طريقًا للدعوةِ إلى اللَّهِ غير الطريقة التي رسمها اللَّه لأنبيائِه ورسلِه والتزموها ونفّذوها فقد ضلّوا؛ كما قال ﷻ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]، ما هي ملة إبراهيم؟ هي التوحيد والدعوة إليه، فإبراهيم عليه السلام بدأ بالدعوة إلى التوحيد وناضلَ في هذا الميدان وحارب القريبَ والبعيد وناظرهم وأقام الحجَّةَ عليهم، ثم بعد ذلك لمَّا يَئِسَ من استجابتهم ذهب إلى أصنامهم وحطَّمَها، فاغتاظوا لأجل هذه الأصنام وغَضِبُوا من أجلِها، ولم يروا شيئًا يشفي غيظَهم إلَّا أن يقذفوه في النَّار، فنجَّاه اللَّه منها فصارت عليه بردًا وسلامًا، وجعلهم اللَّه الأسفلين.

وكذلك نوحٌ عليه السلام قبله لبث ألفًا إلَّا خمسين عامًا يدعو إلى توحيد اللَّه -تبارك وتعالى-.

عندما تأتي إلى بلدٍ عندهم خرافات وبدع وشرك وضلالات، هل نقول لهم: تعالوا نقيم دولة أو نبدأ بتصحيح عقائدهم حكامًا ومحكومين؟! فأمَّا الطريق التي رسمها اللَّه فتبدأ بتصحيح عقيدة الحاكم، بأن تخبره أنَّ اللَّه هو ربُّه، وأن يُعْبَدَ اللَّه، وأن يُخْلَصَ له الدِّين، فإذا صلح وأصلح رعيته واستجابوا دخلوا في الإسلام تمامًا وسيكونون على أتمِّ الاستعداد لتنفيذ حاكمية اللَّه، وإذا رفضوا هذا فسوف يرفضون الحاكمية أيضًا ولن يستجيبوا لك، ومن السّفه ومن مخالفة دين الأنبياء ومنهجِهم أن تقصد إلى الحاكمية وتَسْلُك مثل هذه الأشياء؛ كما تفعل كثيرٌ من الدعوات، إمَّا أن تذهب إلى جانب التصوُّف، وإمَّا أن تذهب إلى جانب السِّياسة وتترك دعوةَ الأنبياء -عليهم الصَّلاة والسَّلام-، فتكون النتيجةُ هي الضياع والخسران في الدنيا والآخرة؛ لأنها قامت على غير منهجِ الأنبياء وقامت على أسسٍ فاسدة وقامت على الأهواء؛ لأنهم إذا لو لم يكن عندهم أهواء وأغراض شخصية ومصالح لما قفزوا عن دعوة الأنبياء التي التزموها وطبَّقُوها.

ولهذا أشار ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ إلى الآيات من سورة الأعراف؛ يشير إلى دعوة الأنبياء -عليهم الصَّلاة والسَّلام-، ما من نبيٍّ، نوح وهود وصالح وشعيب وموسى قصَّ اللَّه قصصهم مُفصَّلة، كلُّ واحدٍ يدعو قومه يقول: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وبيَّنَ مواقفَ هؤلاء الضالِّين، وكيف كذَّبُوهم، وكيف رموهم بالسَّفاهة، وكيف رَمَوْهم بالجهل، فأعداءُ الأنبياء تعرفونهم من مواقفهم تجاه دعوة التوحيد كما وقف أسلافهم للرُّسل بالرَّد والتكذيب والاستهزاء إذا دعاهم الأنبياء إلى عبادةِ اللَّه وحده وإخلاصِ الدين له ونبذِ الأوثان وخلعِها والبراءةِ منها، ومع هذا كلِّه الأنبياء لا يتجاوزون الدعوة إلى توحيد اللَّه، فإذا استجابوا فالحمد للَّه، ومشوا بهم خطوات أخرى، وإذا لم يستجيبوا وقفوا في هذه النقطة ولا يتجاوزونها، ويظلون يلهجون بالدعوة إلى التوحيد، والرسُّول ﷺ كما عرفتم عاش ثلاث عشرة سنة في مكَّة لا يدعو إلى شيءٍ غير التوحيد، لم يخف عليه إقامة الدولة آنذاك، ولم يكن مُهمَلًا ذكرها في القرآن الكريم، لكن يدعو إلى التوحيد واثقًا بوعد اللَّه ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

فعن خَبَّابِ بن الْأَرَتِّ رضي الله عنه قال: شَكَوْنَا إلى رسول اللَّهِ ﷺ وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً له في ظِلِّ الْكَعْبَةِ قُلْنَا له: ألا تَسْتَنْصِرُ لنا؟ ألا تَدْعُو اللَّهَ لنا؟ قال: «**كان الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ له في الأرض فَيُجْعَلُ فيه فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ على رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ وما يَصُدُّهُ ذلك عن دِينِهِ وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ ما دُونَ لَحْمِهِ من عَظْمٍ أو عَصَبٍ وما يَصُدُّهُ ذلك عن دِينِهِ واللَّه لَيُتِمَّنَّ هذا الْأَمْرَ حتى يَسِيرَ الرَّاكِبُ من صَنْعَاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إلا اللَّهَ أو الذِّئْبَ على غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**»[1].

وقد حقَّق اللَّه ﷻ ما وعد رسوله ﷺ من الظهور العظيم على يديه وعلى يدي الخلفاء الرَّاشدين؛ حيث أظهرهم اللَّه وأظهر دينهم على الأديان كلِّها.

وكان ﷺ يكتب إلى الأمراء وإلى غيرهم وكتب إلى قيصر ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النُبوَّة في الإسلام. حديث رقم (٣٦١٢).

دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾[1] [آل عمران: ٦٤]، وكَتبَ إلى كسرى بنحو هذا الكلام.

وكتب إلى غيره قريبًا من هذا المضمون -عليه الصلاة والسَّلام - بعدما قامت الدولة يدعوهم إلى التوحيد، وحينما بعث معاذًا إلى اليمن رتَّب له أمور الدَّعوة فقال: **«إنَّك تأتي قومًا أهل كتاب فليكن أوّلَ ما تدعوهم إليه شهادةُ أن لا إلهَ إلَّا اللَّهَ»**، أهل الكتاب يؤمنون بالجنَّة يؤمنون بالنار يؤمنون باللَّه يؤمنون بالملائكة، ويقولون: لا إله إلَّا اللَّه، لكن أفسدوا معنى لا إله إلَّا اللَّه فقال: **«فلْيكُن أوَّل ما تدعوهم إليه، شهادةُ أن لا إلهَ إلا اللَّه، وأنَّ محمّدًا رسولُ اللَّه، فإن هم أطاعوك لذلك فأخبرهم**- انتقل إلى مرحلة أخرى - **أن اللَّه افترضَ عليهم خمسَ صلواتٍ في كلِّ يومٍ وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك فأخبرهم أنَّ اللَّه افترضَ عليهم صدقةً تُؤخَذُ من أغنيائهم فَتُلْقى إلى فقرائهم»**[2].

هذه هي الطريقةُ الصحيحة للدعوةِ إلى اللَّهِ -تبارك وتعالى-، الآن العالَم الإسلامي تذهب إلى الشرق والغرب، تجد أوثانًا وقبورًا، تجد مدنًا من القبور، تدعى من دون اللَّه، ويستغاث بها من دون اللَّه، وتشدُّ إليها الرحال كما تشدُّ إلى البيت العتيق، ويطاف بهذه الأوثان، ويركع ويسجد لها، ويعتقدون فيها ما يخجل منه أبو جهل من أنَّها تعلم الغيب وتتصرّف في الكون!

وقد أتيت بعض البلدان ورأيت كيف الخشوع والخضوع والذلّ والطمع في أموات لا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا! واللَّه ما رأيت هذا الخشوع عند بيت اللَّه العتيق! - وربِّ السماء - ويَخُور بعضهم كما يخور الثور، ويخرُّ يهوي على عتبة الولي طمعًا ورجاءً وخوفًا ورغبةً! وينسى اللَّه -تبارك وتعالى-! أمر عظيم! الدعوات الموجودة غير دعوة التوحيد؛ دعوة الإمام المجدِّد محمَّد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تقف تتفرّج أمام هذه المشاهد المخزية، ولا ترى هذه منكرًا، بل

---

(١) رواه البخاري/ كتاب الجهاد والسِّيَر، باب دعاء النبي ﷺ النَّاس إلى الإسلام برقم: (٢٩٤٠)، ومسلم/ كتاب الجهاد والسِّيَر، باب كتاب النَّبي ﷺ إلى هرقل.. برقم: (١٧٧٣).

(٢) أخرجه البخاري - كتاب المغازي -، باب بعث أبي موسى ومعاذ بن جبل إلى اليمن قبل حجة الوداع.

تؤيِّدها، بل يذهبون في أيَّام الانتخابات إلى هذه الأوثان، أو إلى أكبرها، فيخرُّون لها راكعين ويقدِّمون لها الزهور والنذور إجلالًا وتعظيمًا لها، بدل أن يدعوا إلى التوحيد، واللَّهِ يفعلون هذه الأمور وهم معدودون دعاةً إسلاميين! فيَضِلُّون ويُضِلُّون الأمَّةَ ويغرقونهم ويغمسونهم غمسًا إلى الحضيض في الضلال والشرك باللَّه -تبارك وتعالى-، ولا تجدُ دعوةً تواجهُ هذه الوثنية إلَّا دعوة اللَّه -تبارك وتعالى-.

على كلِّ حال سأذكر لكم مقتطفات عن التوحيد وأُحِيلُكُم على كُتُبِ التوحيد، فإنَّ هذه المحاضرة إذا طالت لا تُغْني شيئًا، إنَّما نُوَجهكم ونُبيِّن لكم شيئًا من مكانة التوحيد وفضله وما شاكل ذلك، ادرسوا «كتاب التوحيد» للإمام محمّد رَحِمَهُ اللَّهُ وافهموه حقَّ الفهم، واقرءوا شُرُوحَه «تيسير العزيز الحميد»، وكتاب «فتح المجيد»، و«القول السديد»، و«قُرَّة عيون الموحِّدين»، وما شاكل ذلك، واقرءوا «كشف الشبهات»، و«الأصول الثلاثة» للشيخ محمَّد كذلك، و«التوسل والوسيلة»، لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، وكتاب «إغاثة اللَّهفان» للإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ، واقرءوا القرآن قبل كلّ هذه؛ فإنَّه كتابُ التوحيد كما قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ، واقرءوا كتبَ ابنِ تيمية عمومًا؛ فإنَّه ما من مجالٍ يكتب فيه إلَّا ويعرِّج على العقيدة ويَسْتَطردُ إليها لأهميتها عنده، واقرءوا كُتبَ ابنِ القيم أيضًا الأخرى مثل «زاد المعاد»؛ فإنَّ له لمحات وإشارات وتوضيحات في هذا الباب.

وقد تأمَّلت حياة المسلم فوجدتها قائمةً على التوحيد فنأتي إلى الصلاة إذا توضَّأت تقول: «باسم اللَّه»، تُسَمِّي اللَّه وتتوضأ، هذا توحيد وإذا فرغت تقول كما في الحديث عن النَّبيِّ -عليه الصلاة والسَّلام-: «**ما من عبدٍ يتوضأُ فَيسبغُ الوضوء ثم يقول: أشهد أن لا إله إلَّا اللَّه، وحدَهُ لا شريكَ له، وأنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُه، إلا فُتحتْ له أبوابُ الجنَّةِ الثمانية، يدخلُ مِنْ أيِّها شاء**»[1]، هذا توحيد، تشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وأنَّ محمَّدًا رسولُ اللَّه توحيد، فَتُفْتَحُ لك أبوابُ الجنَّة الثمانية، تدخل من أيِّها شئت.

لأنَّ كلمة لا إله إلَّا اللَّه: لو وُضِعَتْ السموات السَّبع ومن فيهنَّ غيرُ اللَّه في كِفَّة،

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ١٤٥) ومسلم/ كتاب الطهارة، باب الذكر المستحب بعد الوضوء برقم (٢٣٤).

والأرضون السَّبع أيضًا ولا إله إلَّا اللَّه في كِفَّة لمالت بهنَّ لا إله إلَّا اللَّه، هذا جاء عن موسى -عليه الصلاة والسَّلام - وفي هذا الأثر شيءٌ من الضعف، ولكن يشدُّه وصيَّةُ نوحٍ لابنِه -عليه الصلاة والسلام- أوصاه عند موته قال: «**يا بُنَي آمُرُكَ بأن لا إله إلَّا اللَّه**؛ - وهذا حديث صحيح- **فإنَّها لو وضعت في كِفَّة، ووضعت السموات السبع والأرضون السبع في كِفَّة، لمالت بهنَّ لا إله إلَّا اللَّه**»[١]، فإذا قالها العبدُ صادقًا، مخلصًا للَّه -تبارك وتعالى-، عارفًا بمعناها عاملًا بمقتضاها تفتحت له أبوابُ الجنَّة.

فإذا قمت إلى الصلاة تفتتحها بالتوحيد، فتقول: «اللَّه أكبر» هذا توحيد، ثمَّ تستفتح فإمَّا أن تقول: «**وَجهتُ وجهي للذي فَطَرَ السموات والأرضَ حنيفًا مسلمًا وما أنا من المشركين...**»[٢]. وإما تقول: «**سبحانك اللَّهمَّ وبحمدك وتبارك اسْمُك، وتعالى جَدُّك، ولا إلهَ غيرُك**»[٣]. في أنواع جاءت في الاستفتاح كلُّها توحيد، ومن جملتها «**اللَّهمَّ ربَّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطرَ السموات والأرض، عَالِمَ الغيب والشَّهادة، أنت تَحْكُمُ بين عبادِك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدِني لما اخْتُلِفَ فيه من الحقِّ بإذنك، إنَّك تهدي من تشاء إلى صراطٍ مستقيم**»[٤].

وجاء في صلاة اللَّيل، أنواعٌ كثيرةٌ من الاستفتاحات منها أنَّ رسولَ اللَّه ﷺ كان يقول: «**اللَّه أكبر، اللَّه أكبر، اللَّه أكبر، سبحان اللَّه، سبحان اللَّه، سبحان اللَّه، ثلاث مرَّات، الحمد للَّه ثلاث مرَّات**»، -عليه الصَّلاة والسَّلام - يقول هذا، وَوَرَدَ أنَّه «يُكَبِّرُ اللَّهَ عشرًا، ويحمَدُ اللَّهَ عشرًا، ويُسَبِّحُ اللَّه عشرًا»[٥] في بعضِ صلواتِه في اللَّيل -عليه الصّلاة والسَّلام-

---

(١) رواه أحمد (٢/ ١٧٠ - ٢٢٥) والحاكم (١/ ٤٨ - ٤٩)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في الصحيحة برقم (١٣٤).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٩٤ - ١٠٢) ومسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل.

(٣) أخرجه أبو داود (٧٧٥/ كتاب الصلاة، باب من رأى الاستفتاح بـ(سبحانك) والنسائي (٨٩٥/ كتاب الصلاة، نوع آخر من الذكر بين افتتاح الصلاة وبين القراءة)، والترمذي (٢٤٢/ كتاب الصلاة، باب ما يقول عند افتتاح الصلاة)، وابن ماجه (٨٠٤/ كتاب إقامة الصلوات والسنة فيها، باب افتتاح الصلاة، انظر صحيح سنن أبي داود برقم: ٨٤٨/ ج٣/ ٣٦١).

(٤) أخرجه مسلم (٧٧٠/ كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه)

(٥) رواه أحمد (٦/ ١٤٣) وأبو داود، كتاب الصلاة، ما يستفتح به الصلاة (١/ ١٢١) برقم ٧٦٦، والنسائي (١/ ٢٤٠) وابن ماجه كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في الدعاء إذا قام الرجل من الليل برقم: =

وكثيرٌ من هذه الأنواع كلّها توحيد.

ثمَّ بعد ذلك تقرأُ سورةَ الفاتحة، وهي كلُّها توحيد ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، توحيد ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، توحيد ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، توحيد ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كلُّها توحيد، انظر كيف قامت الصَّلاة على التوحيد؛ حينما تركع تقول: «اللَّه أكبر»، هذا توحيد، «**سبحان ربي العظيم وبحمده، سبحان ربي العظيم وبحمده**»[١] «**سُبُّوحٌ قُدُّوس، سُبُّوحٌ قُدُّوس، ربُّ الملائكة والرّوح**»[٢] توحيد، وأذكار أخرى، يعني تأتي أيضًا في الرُكوع، ترفع «**سَمِعَ اللَّه لمن حَمِدَه**»[٣]، هذا توحيد «**ربنا ولك الحمد، مِلْء السموات ومِلْء الأرض، ومِلْء ما بينهما، ومِلْء ما شئت من شيءٍ بعد، أهل الثناء والمجد، أحقُّ ما قال العبد، وكلُّنا لك عبد، لا مانعَ لما أَعْطَيْت، ولا مُعْطِيَ لما مَنَعْت، ولا يَنْفَعُ ذا الجَدِّ منك الجَدُّ**»[٤]، هذا توحيد، وتَخِرُّ ساجدًا للَّه -تبارك وتعالى- توحيد فتقول: «**سُبْحَانَ ربي الأعلى، سُبْحَانَ ربي الأعلى، سُبْحَانَ ربي الأعلى، سُبْحَانَ ربي الأعلى..**»[٥] «**سُبُّوحٌ قُدُّوس، سُبُّوحٌ قُدُّوس، سُبُّوحٌ قُدُّوس**»[٦]، تقول مثل هذا، «**اللَّهمَّ إنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كثيرًا، ولا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلَّا أنت فاغفر لي مغفرةً من عندك وارحمني إنَّك أنت الغفور الرحيم**»[٧]، هذا الدعاء الذي علَّمه رسولُ اللَّه ﷺ لأبي بكر يدعو به في صلاتِه توحيد،

= (١٣٥٦) وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في تخريجه على سنن أبي داود (٧٤٢/ ج٣/ ص٣٥٢).

(١) رواه الدارقطني (١٣٠) وغيره، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في (صفة الصلاة) انظر الأصل (٢/ ٦٥١ - ٦٥٧).

(٢) أخرجه أحمد وأبو داود (٨٧٤) وروى مسلم طرفًا منه بدون الاستفتاح (٧٧٢) كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القرآن في صلاة الليل وهو في صحيح سنن أبي داود برقم (٨١٨) (ج٤ ص٢٧).

(٣) متفق عليه: خ/ كتاب الأذان، باب ما يقول الإمام ومن خلفه إذا رفع رأسه من الركوع برقم: (٧٨٥)، م/ كتاب الصلاة، باب إثبات التكبير في كلِّ خفض ورفع... برقم (٣٩٢).

(٤) رواه مسلم / كتاب الصلاة، باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع برقم (٧٧٧).

(٥) أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٢و٣٩٤و٢٧١) وأبو داود (٨٧١)، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده، والنسائي(١/ ٢٤٥)باب الدعاء في السجود، والترمذي(٢٦١) / كتاب الصلاة عن الرسول ﷺ، باب ما جاء في التسبيح في الركوع والسجود، وابن ماجه (٨٨٨) باب التسبيح في الركوع والسجود وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيح سنن أبي داود(٨١٥/ ج٤/ ص٢٤) والإرواء (٣٣٣).

(٦) أخرجه أحمد(٦/ ٩٤و١١٥و١٤٨) ومسلم/ كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود برقم (٤٨٧).

(٧) أخرجه أحمد(١/ ٣و٧) والبخاري/ كتاب الدعوات، باب الدعاء في الصلاة(٦٣٢٦)، ومسلم/ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من العجز والكسل وغيره برقم(٢٧٠٥).

التَشَهّدْ توحيد، والأذان يرفع شعار التوحيد، فهذه العبادة انظروا ماذا تضمَّنت من توحيد اللَّه في كلِّ حركة من الحركات، كلُّها قائمةٌ على توحيد اللَّه -تبارك وتعالى-.

الحجّ حينما تتأمّله تجده كلُّه قائمًا على التوحيد، التلبية التي تَشْرَعُ بها في الحج، **«لبيكَ اللَّهمّ لبيك، لبيك لا شريكَ لك لبيك، إنَّ الحمدَ والنِّعمةَ لك والملك لا شريكَ لك»**[1]، كيف سمَّاها الصحابة ﷺ؟ قالوا: أَهَلَّ رسولُ اللَّه ﷺ بالتوحيد»، بل رسولُ اللَّه ﷺ وأصحابُه لم يتوقفوا عن رفع شعار التوحيد، وظلّوا يرفعون أصواتَهم به حتى بُحَّتْ أصواتُهم، وكانوا إذا أتوا شَرَفًا كبَّروا وإذا هبطوا منحدرًا سبَّحوا[2] في حجٍّ أو غيره من الأسفار والغزوات والشاهد أنَّ الرسول ﷺ ظلَّ وأصحابُه يهتفون بالتلبية، إلى أن دخلوا مكَّة، ولما وصل إلى البيت الحرام شرع يُكَبر ويطوف ويَقرأُ القرآن أو يَذكرُ اللَّه، هذا توحيد، ثم أتى إلى مقام إبراهيم ليصليَّ ركعتين، فهذا توحيد كذلك، ويَقرأُ فيهما سُورتي التوحيد «الإخلاص»، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[3] هذا توحيد، كلُّ هذه الأفعال تربيةٌ على التوحيد، تتحرك و تنام وتسافر وتستيقظ وتقرأ وتصلِّي، كلُّه توحيد، لكن كثيرًا من الناس غافلون للأسف الشديد، يحتاجون إلى تنبيه، ليُدركُوا تَغَلْغُل التوحيد في كلِّ حركة من حركات المؤمن، لما تنام عندك أدعية هي كلُّها توحيد، لما تستيقظ أدعية كلُّها توحيد.

أنبِّهكم إلى أهميَّة التوحيد ومكانَتِه، حيث إنَّ حياتَك أيُّها المؤمن إن كُنْتَ صادقًا في إيمانك ومخلصًا في توحيدك تستطيع أن تَجْعَلَها كلَّها توحيدًا وتقديسًا وإجلالًا وعبادةً للَّه ربِّ العالمين، فهذه هي أهميَّة التوحيد.

أمَّا خطورة الشرك، أنتقل الآن إلى هذه النقطة وسمعتم ما قرأنا من تهديد اللَّه لأنبيائه ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وقول إبراهيم -عليه

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر ﷺ: (خ/ ١٥٤٩) ك/ الحج، باب التلبية، (م/ ١١٨٤) ك/ الحج، باب التلبية وصفتها ووقتها، وأخرجه مسلم من حديث جابر ﷺ (١٢١٨) ك/ الحج، باب حجة النَّبي ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري/ كتاب الجهاد والسِّير، باب التسبيح إذا هبط واديًا، وباب التكبير إذا علا شرفًا برقم (١٩٩٣، ١٩٩٤)

(٣) أخرجه مسلم من حديث جابر ﷺ (١٢١٨) ك/ الحج، باب حجة النَّبي ﷺ.

الصلاة والسَّلام - وقال ﷻ مخبرًا عن دعاء رسوله إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، هذا وإبراهيم أبو الأنبياء وإمامُ الموحدين وإمامُ الحُنفاء -عليه الصلاة والسلام- يقول: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾، ويقول اللَّه ﷻ عنه: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢-١٣٣].

وقال اللَّه تعالى في المشركين: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

وقال ﷻ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

إذا عرفت خطورةَ الشِّرك لا تزداد إن شاء اللَّه إلَّا تشبثًا بالتوحيد ومعرفةً لمكانة التوحيد، أسأل اللَّه -تبارك وتعالى- أن يُثَبِّتَنَا وإيَّاكم على توحيده وإجلالِه وتعظيمِه، وإخلاصِ الدِّين له، وأن يُجَنِّبَنَا وإياكم الشِّرك والبدع والنفاق ما ظهر من كلّ ذلك وما بطن؛ إنَّ ربنَّا لسميع الدعاء.

وصلى اللَّه على نبيِّنا محمَّد، وعلى آله وصحبه وسلَّم.

* * *

□ **الأسئلة:**

السؤال: ما هي الطريقة المثلى في نظركم لدراسة كتبِ العقيدة والأخذ منها، وما هي النصائح التي توجِّهونها لطلاب العلم المبتدئين ؟

الجواب:

بسم الله الرحمن الرحيم

الطريقةُ المثلى لدراسة كتب العقيدة وغيرها، أول عمل أقوم به حفظُ الكتاب الذي يُوَجِّهُنا إليه العَالِم الذي نُريد أن نَتَلَقَّى عنه العلم، فإذا وجَّهك إلى «الأصول الثلاثة» فاحفظها، أو «كشف الشبهات» فاحفظها، فالحفظ له قيمة ويساعدك على الفهم، ويساعدك على مواجهةِ المشاكل في العقيدة، فأوَّل خَطوة تعملها حفظُ هذا الكتاب في توحيد العبادة إمَّا «كتاب التوحيد» تبدأ به، وإمَّا «الأصول الثلاثة» وإمَّا «كشف الشبهات» على حسب ما يراه العَالِمُ الذي تريد أن تتلمذ عليه، ما تَدرُس على نفسك! وإنما تَجثُوا برُكبتيك متواضعًا للَّه -تبارك وتعالى-، فإنَّ الملائكةَ تَضَعُ أجنحتها لطالبِ العلم رضًا بما يصنع، فكيف لا تخفض جناحك أمام العَالِم وتَجثُو بين يديه تأدُّبًا لتأخذ منه، نحن ليس عندنا تقديسٌ للأشخاص والغلوُّ والإطراء فيهم، ولكن عندنا الأدب، وعندنا الاحترام، ومعرفة قدر علماء السُّنة خاصة، فإنَّ علماءَ البدع ليسُوا بعلماء، العلماءُ هم العلماء بكتاب اللَّه وعلماء التوحيد وعلماء السُّنَّة، ولو لم يكن عندهم ثرثرة وطنطنة وشنشنة، كما يفعلها غيرُهم، فتجلسُ عند هذا العَالِم وتتعلم منه.

الطريقةُ المثلى أن تتلمذ على عالم، فإنَّه يُقَرِّبُ لك البعيد، ويعطيك خلاصةَ خِبْرَاتِه الطويلة، وتحصل منه في الجلسة الواحدة على ما قد لا تحصل عليه طولَ حياتك، أو لا تحصل عليه إلَّا بعد سنين، هذه هي الطريقةُ المثلى في نظري تقوم على اختيار كتاب ثمَّ تتعلَّم منه؛ كما هو شأن السَّلف الصالح فإنَّهم كانوا لا يَتَلَقَّوْنَ العلمَ إلَّا على العلماء، فإذا لم يتلقَّ الطالبُ العلمَ والقرآن على العلماء سَمَّوْهُ «صُحُفِي» أو «مُصْحَفي»، والذي

يقرأُ القرآن على غير الشُّيُوخ يُسَمَّى: «مُصْحَفي»، والذي لا يقرأ الحديثَ والفقهَ وغيرَه على العلماء يقال له: «صُحُفِي»، ؛ لأنَّه يتعلم من الصحف، لا يتعلمُ من العلماء.

فالعلماء إذا جالستهم تتعلم منهم أولًا الأخلاق والأدب، ، وقد كان مالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ يرحلُ إليه الناس من أنحاء الدنيا، وممن رَحلَ إليه يحيى بنُ يحيى النيسابوري، الإمامُ العظيم الذي قال فيه الإمامُ أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ ما رأى مثله، هذا الإمام قرأ «الموطأ» على مالك، ثمَّ لما أنهاه جلس، لاحظَ مالك ذلك لماذا هذا جالس؟! صَبَر، صَبَر ثم بعد مدة سأله قال: لماذا أنت جالس هنا ؟ قال: أتعلَّمُ من أخلاقك.

- ومع الأسف - ترى كثيرًا من الناس يَأْنَفُ من الحضور عند أهل العلم والأخذِ عنهم، ويَأْنَفُ من الجلوس بين يدي العلماء، هذا واللَّه أعلم سببه الغُرور ورداءة الخُلُق، لهذا تجد هؤلاء عندهم من الغُرور ومن الجهل والغطرسة والاعتزال ومن رداءة الأخلاق، ما لا تجده عند غيرهم، فإذا انطوى الإنسانُ على نفسه، ولا يُعَلِّمُهُ مُعلِّم، يُعَلِّم نفسَه، هذا دليلٌ على مرض، فالطريقةُ المثلى أن تأخذ العلمَ من أفواهِ العلماء، وهم يُوجهونك إلى الكتاب الذي يلائم ذكاءَك وما عندك من القُدُرَات، العالم يعرف وقد جرَّب قبلك، هذه الطريقة المثلى وأُحيلُكم إلى الكتب التي ذَكرتُها لكم في هذه الكلمة.

وهنا سؤال يقول: ما رأيكم في قولِ من يقول إنَّ الاجتماعَ مطلبٌ أساسي، فإذا جاءنا من يُفَرِّقُ الاجتماع فيجب أن يُرْفَض حتى ولو كان الذي جاء أو الذي جاء به هو التوحيد؟

الجواب: الاجتماعُ مطلبٌ أساسي، فإذا جاء شخصٌ بما لا يُحَقِّقُ هذه الغاية، فإنَّه يجب أن يُرْفَض، يعني يُخالِف هديَ الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وهديَ القرآنِ الكريم في الاجتماعِ على الحقّ، هل اللَّهُ -تبارك وتعالى- يريدُ مُجَرَّدَ اجتماع ولو كان تحتَ رايةِ هذا الاجتماع الروافض والخوارج والباطنية وعُبَّاد القبور وما شاكلَ ذلك؟! هل هذا هو الاجتماعُ الذي أمر اللَّهُ به ؟! هل هو معنى قولِ اللَّه -تبارك وتعالى- ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣]؟! ما هو حبلُ اللَّه ؟ هو القرآن والسُّنة، فلتكن الرابطة الوحيدة بينكم كتابُ اللَّه، قال اللَّه تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً

وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، هذا هو الاجتماعُ الذي يريده اللَّه؛ أن يكونَ على الحقِّ وعلى الوحي الذي ألزمنا به وكَلَّفَنَا به ﷻ.

لكن هؤلاء كيف أسمِّيهم؟! أعداءَ الأنبياء، أو الجهلةَ السُفهاء لهم آراء ونظرياتٌ سياسية تخالف منهجَ الأنبياء ومنهجَ محمّدٍ خَاتَمِهم -عليه الصلاة والسلام- من الدعوة الحارَّة إلى الاجتماع الحقّ وعدم تفريق الدين؛ كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، باللَّه لو فَرَّقُوا دينَهم واجتمعوا تحتَ رايةٍ ديمقراطية ما بالَوْا بذلك!

ولم يَكْتَفِ هؤلاء بالمناداة لتجمع الصوفية والروافض والخرافات تحت رايةٍ واحدة، بل صاروا يَهتِفُونَ بوحدة الأديان، ويَهتِفُونَ بأُخُوَّة النَّصارى، هؤلاء أو هذه النظريات الفاسدة المُضَادَّة لما جاء به الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- آلَتْ بهم هذه الأهواء إلى الدَعوةِ إلى وحدة الأديان، وإلى التَحَالُفِ مع الشيطان وإلى التَحَالُفِ مع العلمانيين والشيوعيين، وإلى أُخُوَّة النَّصارى واليهود والوثنيين، وما ندري إلى ماذا ستنتهي؟ هل ستنتهي بمروقِهم من الإسلام تمامًا؟ أو بماذا ستنتهي؟ إلى ماذا ستحول هذه الدعوة؟!

فالدَعوةُ الصحيحة أن نجمعَ الناسَ على كتابِ اللَّه وسنَّةِ رسول اللَّه ﷺ فمن استجاب يدخل إن شاء اللَّه في حظيرةِ الفرقةِ الناجية والطائفةِ المنصورة، ومن أبى فقد اختار لنفسِه أن يكون من الفرقِ الهالكة التي أخبرنا عنها رسولُ اللَّه ﷺ لأنَّها أبت أن تنضوي تحت رايةِ التوحيد، وتحت رايةِ الكتاب والسُّنة، وأَبتْ إلَّا أن تَسلُكَ السُّبُلَ التي يدعو إليها الشياطين، شياطينُ الإنس والجنّ، ولا يُكلّفُ اللَّه نفسًا إلَّا وُسعَها.

وإنَّا لَنَلمسُ الآن نتيجةَ هذه الدعوات على وجه الأرض، ما الذي يحصل الآن في أفغانستان بين أصحاب هذه الدعوات؟ ما الذي حصل لمَّا فُتحت كابل؟ ألم يبدأ أصحاب هذه الدعوة يتناحرون فيما بينهم، ويقتل بعضهم بعضًا من أجل الكراسي!

الآن نرى انقسامات إلا دعوة الإمام المجدد محمَّد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ لم يختلف علماؤها إلى اليوم، ما حصل اختلافٌ منهجي، ولا اختلاف عقدي، ولا

اختلاف سياسي أبدًا، لأنَّها دعوةٌ قائمةٌ على «قال اللَّه، وقال رسول اللَّه ﷺ»، وصار غيرهم جماعات، جماعة التكفير، وجماعة الجهاد، وجماعة التبيُّن والتثبُّت، وجماعة . . . ، جماعات لا أوَّل لها ولا آخر، لا يوجد شيء يعصِمُهم من التفرُّق، العاصم من التفرُّق هو فهم هذا الكتاب والالتفاف حوله، لهذا يطولُ أمدُ من أخلص للَّه، ومن هؤلاء المخلصين أصحاب دعوة الإمام محمَّد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ فترى علماءَها إخوة، ليس بينهم اختلافٌ منهجي، ولا عقائدي، ولا سياسي، ولا فكري ولا شيء.

* * *

التوحيد أصل الأصول
وقاعدة في
الأسماء والصفات

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمدَ للَّه نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسنا ومن سيِّئاتِ أعمالنا، من يهدِهِ اللَّهُ فلا مُضِلَّ له، ومن يُضْلِلْ فلا هادي له، وأشهد أن لا إلهَ إلَّا اللَّهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠- ٧١].

أمَّا بعد: فإنَّ أصدقَ الحديثِ كلامُ اللَّه وخيرَ الهدي هديُ محمدٍ ﷺ وشرَّ الأمورِ محدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعة وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النار.

مرحبًا بكم أيُّها الإخوة في هذه الرِّحاب المطهَّرة، وفي مَهْبَطِ الوحي، وفي منازلِ التوحيد، فأهلًا وسهلًا بكم، وبهذه العبارات التي سمعتموها سيكونُ الحديثُ - إن شاء اللَّه - حولَ التوحيد الذي هو أصلُ الأصول، وإذا كان للناسِ أصولٌ وأصول الأصول يدورون حولَها؛ فإنَّ أصلَ الأُصولِ عند الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وعند سادةِ هذه الأمَّة من الصحابة الكرام ومن اتَّبعهم بإحسان، إنَّ أصلَ الأصول عندهم هو التوحيد، فإذا كان أصلُ الأصولِ عند أقوامٍ في السِّياسة، وأقوام عندهم هي الفلسفة، وتختلفُ الغايات على حسب ما يرسمُه أهلُها؛ فلكلِّ قومٍ غاية، ولكلِّ قومٍ أصول، والأصلُ عندنا هو هذا الأصلُ الذي جاء به جميعُ الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ، وعليه تدور كلُّ العبادات، فالعبادات إنمَّا هي تأكيدٌ لهذا الأصل وبَرْهنةٌ على الإيمانِ به حقَّ الإيمان.

فالتوحيدُ يتغلغلُ في كلِّ العبادات؛ بل هو أصلٌ أصيلٌ في كلِّ العبادات، فإذا جئنا إلى

الصلاة نجدُها قائمةً على هذا الأصل؛ فسورة الفاتحة التي قال فيها رسولُ اللَّه -عليه الصلاة والسلام- في شأنها: «**لَا صَلَاةَ لمن لم يَقرَأ بفاتحةِ الكتاب**»[1]، هي أعظمُ سورةٍ في التوحيد، وهي أمُّ الكتاب، والقرآنُ كلُّه يدور عليها، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ توحيد، ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ توحيد، ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ توحيد، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ توحيد.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ توحيدُ الربوبية، ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ توحيدُ الأسماءِ والصفات، ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ كذلك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ توحيدُ العبادة.

والرسولُ ﷺ يروي عن ربه ﷻ في الحديثِ القُدسِي يقول فيه «**إِنِّي قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وبينَ عَبْدِي نِصْفَيْن، فإذا قَالَ العَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قَالَ اللَّهُ: حَمِدَنِي عَبدِي، وإذا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قَالَ اللَّهُ: أَثْنَى عَلَيَّ عَبدِي، وإذا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قَالَ: مَجَّدَنِي عَبدِي، وإذا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَالَ: هذه بَيْنِي وبين عَبدِي، وإذا قَالَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قَالَ: هذه لِعبدِي ولِعبدِي ما سأل**»[2].

فَانظرُوا وأدركوا عناية اللَّهِ -تبارك وتعالى- بعبدِه، خاصَّةً في هذه السُّورة التي فرضها اللَّهُ في كلِّ الصَّلوات المكتوبات والنوافل؛ فلا تَصِحُ صلاةٌ إلا بها، فهي علاقةٌ وطيدة بين العبدِ وربِّه، ولكن شَريطةَ أن يكونَ مخلصًا للَّه ربِّ العالمين، مؤمنًا بما يقول، مُثبِتًا لأسماءِ اللَّه وصفاتِه؛ فهو إذا قَالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يؤمن بأنَّ اللَّهَ -تبارك وتعالى- ربُّ السموات والأرض والجِنِّ والإنس والملائكةِ وكلِّ المخلوقات في هذا الكون، فهو ربُّها: خالقُها، وسيِّدُها، ومالكُها، ومدبِّرُها، بِيَدِه الحياة، وبِيَدِهِ الموت، وبِيَدِه الجزاءُ على ما قَدَّمَ المُكَلَّفُون في هذه الحياة، وإذا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ

(١) متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت (خ/ ٧٥٦) كتاب الأذان و(م/ ٣٩٤/ ٨٧٢) كتاب الصَّلاة.

(٢) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ برقم (٣٩٤/ ٨٧٢) كتاب الصَّلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كلِّ ركعة وأنَّه إذا لم يحسن الفاتحة ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها.

﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ أثبتَ بذلك توحيدَ الأسماءِ والصِّفات التي امْتلأَ بها كتابُ اللَّهِ ﷻ، وكثيرٌ من سُنَّةِ رسول اللَّه ﷺ تدورُ على هذا التوحيد، توحيد الأسماءِ والصفات، ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يتضمّن هذا الوصف توحيدَ الأسماءِ والصفات المعروف عند أهلِ السُّنة والجماعة الذين تميَّزُوا بإثباتِ هذا التوحيد من بينِ جميعِ الفِرَقِ التي انْحَرَفَت عن منهجِ اللَّهِ الحقِّ، انحرفت عن القرآنِ وعن السُّنة وعما كان عليه السَّلف الصَّالح، فعطلُوا أسماءَ اللَّهِ وصفاتِه وأفعالَه ﷻ وكلامَهُ الذي هو وحيُهُ إلى جميعِ رُسُلِه -عليهم الصلاة والسلام- ، وفيه العقائدُ والتشريعات.

فيثبت - أهلُ السنَّة - للَّهِ -تبارك وتعالى- هذا النَّوعَ من التوحيد، من أنَّ اللَّهَ هو الرَّحمنُ الرَّحيم ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢- ٢٤].

وفي هذا الباب سورةُ الإخلاص ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ التي تعدلُ ثُلُثَ القُرآن أعطاها اللَّهُ -تبارك وتعالى- هذه المَنْزلةَ العظيمة فإنَّها تعدلُ ثُلُثَ القرآن، لماذا ؟ لأنَّها تَشْتَمِلُ على هذا التوحيدِ، توحيد اللَّه بأسمائِه وصفاتِه، كذلك آيةُ الكُرسي، وكذلك كثيرٌ من آياتِ القرآنِ الكريم يختمُها اللَّهُ -تبارك وتعالى- بأسمائِه وصفاتِه العظيمة.

وهذا تربيةٌ على توحيدِ اللَّهِ ﷻ، ومعرفتِه حقَّ المعرفة بهذه الصفات العظيمة التي تُنَوِّرُ العُقُولَ، وتُضيءُ في القُلوب، ومن لم يَفهم هذا الباب ولم يُؤمِن بصفاتِ اللَّهِ كما أثبتَها في كتابِه حُرِمَ من هذا الخيرِ والعياذ باللَّه، بل قد كَفَّرَهُ السَّلف؛ لقد كَفَّرُوا من يُعَطِّلُ أسماءَ اللَّهِ وصفاتِه؛ بل كَفَّرُوا من أنكرَ الاستواء؛ بل قَتَلُوا من أنكرَ أنَّ اللَّهَ اتَّخذ إبراهيمَ خليلًا - يعني أنكرَ صِفَةَ الخُلَّة والمحبَّة-، وكَلَّم موسى تكليمًا.

قال أميرُ العراق خالدٌ بن عبد اللَّه القِسْري لما قَتَلَ الجَعْدَ بنَ دِرهَم قال: «أيُّها النَّاس تقرَّبُوا إلى اللَّهِ بِضحاياكم، فإنِّي مُتَقَرِّبٌ إليه بالجَعْدِ بنِ دِرهَم؛ لأنَّه أنكرَ أن يكون

اللَّهُ اتَّخَذَ إبراهيمَ خليلًا، وكلَّم موسى تكليمًا»[١].

كان في ذلك الوقت العلماءُ والحُكَّام على عقيدةٍ واحدة ومنهجٍ واحد، والحاكمُ المسلم لا يَقِلُّ غَيرةً على دينِ اللَّه وعلى توحيدِ اللَّه من كبارِ العلماء، كان للتوحيدِ هذا عندهم مَنْزلةٌ عظيمةٌ لدرجةِ أنَّ مثلَ هذا الأمير الذي هو من أقلِّ الأُمراءِ شأنًا، ولعلَّه من أضعفِهم تَدَيُّنًا ولكنَّه يؤمن بهذا التوحيد، ولهذا أبرَزَ هذه الغيرةَ على دينِ اللَّه -تبارك وتعالى- وأيَّد ما ذهب إليه العلماءُ[٢]، وغار للَّهِ ﷻ وأجرى هذا الحُكمَ على هذا الذي تطاول على شيءٍ من صفاتِ اللَّه -تبارك وتعالى-، وكان هذا مصيرَه وجزاءَه.

وهذا يُذَكِّرُني بحادثة عند الخليفةِ هارون الرشيد رَحِمَهُ اللَّهُ الذي كان يغزو عامًا ويَحُجُّ عامًا، وكان يبكي من خشيةِ اللَّه إذا ذُكِّرَ باللَّه ﷻ حتى يُغمى عليه أحيانًا، كان في مجلس يُحَدِّثُه فيه أبو معاوية محمد بنُ خادم الضرير، فَحَدَّثَهُ ببعضِ الأحاديث، ومن ضمنها حديث[٣]: «**إنَّ آدَمَ وَمُوسَى تَحَاجَّا فَحَجَّ آدمُ مُوسَى**» يعني في قضيةِ القدر، قال: «**فَحَجَّ آدمُ مُوسَى**». قال أحدُ كُبَرَاءِ قُريش، ومن كبارِ الأُسرةِ الحاكمة، من كبارِ الأُسرَةِ العبَّاسية الحاكمة التي تَحكُمُ الدنيا، ولعلَّه عمُّ الرشيد قال: فأين الْتَقَيَا؟ فقال الخَلِيفةُ الغيورُ: «أين السَّيف والنطع لأقتُلَ هذا المُلحد»؛ لأنَّه استنكر حَدِيثَ رسُولِ اللَّه -عليه الصَّلاةُ والسَّلام-.

الآن علماء ومدارس كبيرة وجامعات تقومُ على الاستخفاف بِخبرِ الآحاد وأنَّه لا يفيدُ العِلمَ، وأنَّه من الظُّنون، وأنَّها ما تقومُ به عقيدة؛ لكن كان منهجُ السَّلفُ الصَّالح علماؤُها وحكامُها وغيرُهم على احترامِ سُنَّةِ رسُولِ اللَّه ﷺ جميعًا؛ ما يقولون: هذا

---

(١) انظر هذه القصة في (البداية والنهاية) لابن كثير (١٠/ ٢٦).

(٢) قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في الكافية الشافية:

ولأجل ذا ضحى بجعد خالد الـ ... ـقسري يوم ذبائح القربان
إذ قال إبراهيمُ ليس خليلَه ... كلًّا ولا موسى الكليمَ الدان
شكر الضَّحية كل صاحب سنة ... للَّه درُّك من أخي قربان

(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (خ/ ٦٦١٤) ك/ القدر. باب تحاج آدم وموسى عند اللَّه (م/ ٢٦٥٢/ ٦٦٨٤) ك/ القدر. باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام.

متواتر وهذا آحاد، ولا نقبَلُ العقيدةَ إلَّا عن طريقِ التواتر، والآحاد إنَّما تفيدُ الظنَّ، لا يقولونَ مثلَ هذا الكلام الفارغ الذي اخترعه أعداءُ اللَّه من كبارِ أهلِ البدع ومن غيرِهم.

الشاهدُ أنَّ القُرُونَ المُفَضلة التي شهد لها رسُولُ اللَّه -عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَام - ما فُضِّلَت على الأُمَمِ كُلِّها وعلى هذه الأُمَّة إلَّا بتَمسُّكِها بكتابِ اللَّه وبِسُنَّةِ رسُولِ اللَّه -عليه الصلاة والسَّلام - في أبوابِ التوحيد في الدَّرجةِ الأولى، ثُمَّ في سائرِ أبوابِ الدِّين، مؤمنين بكتابِ اللَّه، مؤمنينَ بهذه النُصوص، مؤمنين بسُنةِ رسُول اللَّه - عَلَيْه الصَّلَاةُ وَالسَّلَام - يحتجُّون بالسُنَّةِ في أيِّ مجالٍ من المجالات، السُنَّة يحترمونها ويَبْنُونَ عليها عقائدَهم، وعليها يُوالون ويُعَادُون، كما قالَ الإمامُ ابنُ عبدِ البَّر رَحِمَهُ اللَّهُ على هذه الأحاديث التي تُثبِتُ صفاتِ اللَّهِ -تبارك وتعالى- وتُثْبِتُ العقائدَ والأمورَ الغَيْبية، لا يقولون فيها: إنَّ أخبار الآحاد تُفيدُ الظنَّ[1]؛ كما تقومُ عليه جامعاتٌ ومدارس.

الآن مع الأسَفِ الشديد لغربةِ الإسلام ولغربةِ السُّنَّة تسَلَّطَ أهلُ البدعِ والضَّلال على مناهجِ المسلمين، وعقائدِ المسلمين، ويُعْطُونَ لكلامِهم وفلسفاتِهم الضَّالة من المَنْزلةِ ما لا يُعْطُونَه لسُنَّةِ رسُولِ اللَّه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام -، وهم يتخذون أقوالَ فلاسفتِهم وغلاةِ أهلِ البدع يأخذونها قضايا مُسَلَّمَة، وأقوالًا مُصَدَّقة، لا يقولون فيها: أخبار آحاد! يَتبجَّحون بقولِ فلان من أئِمَّةِ التعطيل، تحتج: قال الإمامُ الفُلاني وقال الإمامُ الفُلاني وقال الإمامُ الفُلاني.. في تعطيلِ صفاتِ اللَّهِ الثابتةِ بالقرآن والسُنَّةِ المتواترة، الثابتة بكتابِ اللَّهِ بعَشراتِ النُّصوص، بل بمئاتِ النُّصوص.

قضيَّةُ الاستواء - استواءُ اللَّه على عرشه - أكثرُ ما حَارَبَ أهلُ السُنَّة والجماعة الجَهميةَ المُعَطِّلة بإنكارِهم لِعُلُو اللَّهِ واستوائِه على عَرْشِه، فيأتي هؤلاء الذين يُفَرِّقُونَ بَينَ أخبارِ الآحاد والأخبار المتواترة فَيَكْشِفُ اللَّهُ حقيقةَ مَنهجِهم وواقعَهم فإذا بهم يُحَرِّفُون ويُعَطِّلون من صفاتِ اللَّهِ وأسمائِه ما ثَبَتَ بنُصوصِ القرآنِ وبالسُّنَةِ المتواترة، لو وَقَفُوا عندَ حدِّ هذه القاعدةِ الفاسدة وأخذوا بالمُتواترات وبالنُّصوص القطعية من القرآن لَخَفَّت

(١) قال في مقدمة كتاب (التمهيد/ ص١١) : «وكلُّهم - أهل الفقه والأثر - يدين بخبر الواحد العدل في الاعتقادات، ويعادي ويوالي عليها، ويجعلها شرعًا وديناً في معتقده، على ذلك جماعة أهل السنة».

المُصِيبة وهَانَت، ولكن مع الأسفِ الشَّديد إنَّ هذا الكلام إنَّما يقولونَه ليَدرءُوا في نُحُورِ أهلِ السُنَّة، ويَردُّوا أخبارَ الآحاد وغيرها، ولكنَّ اللَّهَ يَكشِفُ حَقِيقَتَهم عندما تأتي النُّصُوصُ القرآنية النُّصُوصُ المتواترة من السُنَّة، وإذا بهم يَكْشِفُونَ عن حَقِيقةِ ما يَعتقدُون.

فعلى سبيل المثال أسماءُ اللَّهِ وصِفاتُه التي يُشيرُ إليها قوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾، ولعلي أذكُرُ كلامًا لابنِ الوزير رَحِمَهُ اللَّهُ قاله في «الروضُ الباسم في الذَّبِ عن سُنَّةِ أبي القَاسِم» تَعَرَّضَ للفِرَقِ وللخلافاتِ بينهم وأَنْكَرَ ما عندهم من الأباطيل والتحريفات والتأويلات الباطلة، ثُمَّ دَلَفَ إلى الأَشعَرِية الذين ينتَسِبُون إلى السُنَّة، فقال: إنَّه ليأخُذَكَ العَجَبُ من هؤلاءِ الذين يَنتسِبُونَ إلى السُّنَّة، يَأتُونَ إلى صِفَةِ الرَّحمة التي ثَبَتَتْ في كِتَابِ اللَّهِ في خَمْسِمائةِ نَصٍّ مُكَرَّرَة ومُؤَكَّدَة ومَعَ ذلك يُعَطِّلُونَها ويَنفُونَ عن اللَّه هذه الصِّفَة التي ثَبَتَتْ بخَمْسِمائَةِ نَصٍّ في القُرآن دَعْكَ النُّصُوص المُتَكاثرة مِنَ السُنَّة التي أَثْبَتَتَ هذه الصِّفَة العظيمة التي قال اللَّهُ عنها: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فَمِن آثارِ هذه الرَّحمة كلُّ مَا ترى من الخيرِ والبِرِّ في الدُّنيا والآخرة إنما هي أثرٌ من آثارِ هذه الرَحمَةِ العظيمةِ التي اتصَفَ اللَّهُ بها، عَطَّلُوا هذه الصِّفات مخالفين لهذه النُّصُوص، مخالفين للمُسَلَّمات عندهم فيما يَدْرُسُونَهُ من فُنُون اللُّغَةِ، من نَحْوِهَا، وبَلَاغَتِهَا، وغيرِها من صُنُوفِ اللُّغَةِ العربية التي قَرَّرُوها هم وقرَّرُوا قواعدَها.

فمن قواعِدِهم في اللُّغَةِ وفي البلاغةِ أنَّ التَّكْرَارَ يَرفعُ احْتمالَ المجاز، وأنَّ التأكيدَ يَرفعُ احْتمالَ المجاز، فعندهم إذا قُلْتَ «جَاء زَيْدٌ» قالوا يَحْتَمِلُ أن يكون جاء بنفسِهِ، وأن يكون جاء غُلَامُهُ، وأن يكون جاء منه رسالة، ويحتمل ويحتمل، لكن هم يُقَرِّرُونَ في نَفْسِ الوقتِ أنَّكَ لو قلت: «جاءَ زَيْدٌ، جاءَ زَيْدٌ» تساقطت كلُّ هذه الاحتمالات - احتمالات المجاز - ، وثبتت الحقيقة!؛ فَيَتَعَيَّنُ الإيمانُ بأنَّ زيدًا قد جاءَ وثبت مجيئُه، وأنَّ مجيئَه حقيقةً لا يُمَارُونَ في هذا، لو قال هذا كافرٌ نُسَلِّم لهم بأن هذا حقيقة وانتهى كلُّ شيء، وإذا قالوا: «جاءَ زَيْدٌ نَفْسُهُ» تأكيد معنوي إذا قال: «جاء زيد» يحتمل احتمالات تَرِدُ كُلُّها؛ لكن إذا جاء بتأكيد معنوي فقال: «جَاءَ زَيدٌ نَفْسُه» أو «جَاءَ زَيدٌ عَيْنُه» تساقطت تلك الاحتمالات كلّها، وثبتت الحقيقةُ بسبب هذا التأكيد.

فنأتي إلى القرآن الكريم وإذا به يَفتتحُ القرآنَ بهذه الصِّفة: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، وتقرأ سُورةَ البقرة فتجد هذه الصفة في كثير من الآيات، ثمَّ تقرأُ سُوَرَ القرآن فتجدُ في كثيرٍ من الآيات تُختَمُ بهذه الصِّفة كما قال هذا الإمام - ابنُ الوزير - في خمسمائة موضعٍ مُكرَّرَة ومُؤَكَّدة فما عُذرهم؟! يعني: كلامُ اللَّه ﷻ لا يفيدُ ما يفيدُه كلامُ البشر!

رحمةُ المخلوق لا تَسَعُ نَفْسَه ورحمةُ اللَّه وَسِعت كلَّ شيء، رحمة اللَّه تليقُ بجلاله ﷻ؛ فَابنُ خُزيمة رَحِمَهُ اللَّهُ عندما جاء يَذْكُرُ صِفةَ اليَد للَّه ﷻ وذَكَرَ النُّصوصَ في أنَّ اللَّهَ يُمسكُ السموات بأُصْبُع، والأرضينَ بأُصْبُع، والجبَالَ بأُصْبُع، وكذا ويُمْسكُ السموات بيده اليُمنَى والأرضَ بيده الأُخرَى، قال: هل هناك يَدٌ تُشبهُ هذه اليَد؟! هل يوجد يدٌ تُشبهُ هذه اليد التي تمسِكُ السموات والأرض - تعالى اللَّه عمَّا يقولون علوًّا كبيرًا -[1]؟!

فأنا أُثبتُ للَّه العلمَ، والقدرةَ، والإرادةَ، والاستواءَ، والنُّزُولَ، والمجيءَ، والغَضَبَ، وكُلَّ ما أَثْبَتَهُ اللَّهُ لنَفْسِهِ، ووَصَفَ به نَفْسَهُ، وأثنى به على نَفْسِهِ نُثْبِتُهُ على الوجهِ اللائقِ باللَّه -تبارك وتعالى-، ولا نأخُذُ من ديننا ما نشاء وننفي منه ما نشاء، فنقع في التناقضِ؛ بعد هذا الجُحُود وبعد هذا النُّكْرَان لا مَحِيصَ لنا ولا مَخْرَجَ من التناقض.

فاللَّهُ له إرادة، والمخلوق له إرادة، فالواجب أن تَطرد البابَ على وتيرة واحدة وتُثْبِت كلّ الصِّفات؛ فإذا آمَنْتَ بالإرادةِ والعلمِ والقدرةِ على أساسِ أنَّها لا تُشبِهُ صِفاتِ المخلوقين فتُؤمِنُ بالغضبِ والرِّضا والرحمةِ والنُّزولِ والمجيءِ والاستواء على أنَّها صفاتٌ لائقةٌ بِجلالِ اللَّهِ -تبارك وتعالى- لا يشابِهُهُ فيها شيءٌ من المخلوقات، فلا تعطيل، ولا تشبيه، ولا تمثيل، وإنَّما هو إيمانٌ صادق، مؤمنٌ باللَّهِ -تبارك وتعالى- مُقَدِّسٌ لجلالِه وعظمته، مُنَزِّهٌ له عن النَّقص وهو الخُلُوُّ من هذا الكمال الذي وَصَفَ به نَفْسَه، فخلُوُّه من الرحمة نقص، وخُلوُّه من الغضبِ نقص، وخُلوُّه من الاستواءِ على عرشِه هذا نقصٌ، يتعالى ويَتَنَزَّهُ عنه ربُّنَا -جلَّ وعلَا-.

---

(١) انظر كتابه في التوحيد (ص ١٦١ - ١٦٤) بتحقيق أبي مالك أحمد بن علي الريَّاشي الرادعي.

فإذا قالوا: إنَّ اللَّهَ ما هو على العرش، أين هُوَ ؟! جوابهم: لا فوق، لا تحت، لا يمين، لا يسار، لا داخل العالَم ولا خارجه! يجيئُكَ واحد شيوعي ينكر وجود اللَّه تقول له: أنت تنكر اللَّه؟ فيقول: نعم!؛ فتقول له: كيف يا هذا ؟ يقول لك: هو العدم لا فوق، لا يمين، ولا يسار، ما الفرقُ بين هذا الجَاحدِ وهذا الجاحد ؟! - نسأل اللَّه العافية - هذه خطيرةٌ جدًّا - والعياذ باللَّه - هذا مُؤَدٍّ إلى إنكارِ وجودِ اللَّه ليس إلى تعطيل الصِّفات - والعياذ باللَّه - لكن نحن نَعتذرُ لهم بجهلهم وضلالهم وإلَّا فالأمرُ خطير، وقد كَفَّرَ به السَّلف لتعطيلهم للنُّصوصِ المتكاثرة.

هذا - العُلُو - فيه أَلْفُ دليل، وكذلك ما سمعتموه عن صِفَةَ الرَّحمة، وكثيرٌ من النُّصوص تُثبِتُ صفاتٍ عظيمةً تليقُ بجلالِ اللَّه، عَطَّلها هؤلاء، إمَّا إنَّها لا تليقُ بجلالِ اللَّه على زعمهم، وإمَّا أنَّها جاءت عن طريق أخبار الآحاد! - فتعالى اللَّه عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا - فالشاهد أنَّ هذه السُّورة من سُوَرِ القرآنِ الكريم من أعظَمِ سُوَرِ التوحيد، وفيها إثباتُ أنواعِ التوحيد: توحيد الرُّبوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، وتوحيد الألوهية.

وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ هذا فيه توحيدُ الألوهية وإخلاصُ الدِّين للَّهِ -تبارك وتعالى- فلا نستعينُ في أمرٍ من الأمور - الأمور التي لا يقدر عليها إلَّا اللَّه - -تبارك وتعالى- لا يجوزُ الاستعانةُ فيها بمخلوق من المخلوقات، لا الأنبياء ولا الملائكة ولا غيرهم من مخلوقات اللَّه ﷻ، «**إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ**»[1]، فقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ نَخُصُّكَ بالعبادة؛ لأنَّ هذه من صيغِ القصرِ والتخصيص، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لا نَعبُدُ إلَّا إيَّاك وحدَكَ مخلصين لك الدِّين لا نشرك أحدًا في عبادتِك لا نتَّخذُ شريكًا معك في ذَرَّةٍ من ذَرَّاتِ العبادات التي خُلِقت الجِنُّ والإنسُ من أجلها، والتي قال اللَّهُ ﷻ فيها: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾؛ فَرَبُّنَا ما خَلَقَنَا إلَّا لعبادتِه، وفَرَضَ علينا هذه السُّورة التي ندينُ اللَّهَ -تبارك وتعالى- بها في كلِّ ركعةٍ من الرَّكعات؛ فنعترفُ بهذا الحقِّ، ونَصرَخُ بهذه الغاية التي خُلِقنَا من أَجلِها،

(١) قطعة من حديث أخرجه الترمذي عن ابن عباس ﷺ برقم (٢٥١٦) كتاب القيامة عن رسول اللَّه ﷺ. وقال: حديث حسن صحيح.

فنقولُ: لا نَعبُدُ إلَّا إيَّاك، لا نَعبُدُ غَيرَك تحقيقًا لهذه الغاية التي خَلَقتَنَا من أَجلِها وسَخَّرتَ لنا ما في السموات والأرض لنَقُومَ بها.

وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لا نَسْتَعِينُ إلَّا بك في العِبادة في أمور الدِّين، في أمورِ الدُّنيا لا نستعينُ إلَّا بك، ولا نَلْجَأُ إلَّا إليك، ولا نَستغيثُ في الكُروبِ إلَّا بك، ولا نلجأُ في الشَّدائد إلَّا إليك، ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

فهذه لمحاتٌ عن التوحيدِ في الصَّلاة.

العبادات قائمةٌ على توحيدِ اللَّهِ -تبارك وتعالى- الذي هو دَيْدَنُنَا وغايَتُنَا، إذا كان للنَّاس شِعارات، فنحن ليس لنا إلَّا شِعار الأنبياء، وإذا كان للنَّاسِ دعواتٌ فليس لنا إلَّا دعوةُ الأنبياء، وإذا كان للنَّاس مناهج فليس لنا إلَّا منهجُ الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-؛ والقرآنُ أكبرُ شاهد، وقد رَدَّدَ اللَّهُ هذه الشهادات وكرَّرها في كثيرٍ من الآيات: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] كلُّ رسولٍ يقولُ لقومه هذا ويفاجئ قومَهُ بهذه الدَّعوة - الدعوة إلى التوحيد ونبذ الطواغيت -.

وبهذه المناسبة الطواغيت تُطلَقُ على أنواع، لكنَّها في خِطاباتِ الأنبياءِ -عليهم الصلاة والسلام- لا تعني إلَّا الأصنام والأوثان التي كان الأقوامُ يعبدونها من دون اللَّهِ، وهذا صريحٌ واضح في دعوة أبي الأنبياء وإمامِ الأنبياء إبراهيم - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام - الذي قال: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، هذا إبراهيم عليه السلام.

الدُّنيا مليئةٌ بالضلالات، مليئةٌ بالانحرافات والضَّلالات الاجتماعية والسِّياسية والقانونية... ولكن كان يَقُضُّ مَضجِعَه في الدَّرجةِ الأولى هذا الفسادُ في العقيدة، هذا الفسادُ الذي يُضَادُّ التوحيدَ الذي جاء به الأنبياءُ قَبلَ إبراهيم وبعد إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-.

ومع الأسف عندما يأتي السِّياسيون في عصرنا هذا يقولون الشِّرك السَّاذج! وما يدري المساكين أنَّهم يَتنقَّصُونَ دعواتِ الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ما يدرون أنَّهم

يَسخَرون من حيث لا يشعرون من دعواتِ الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ؛ إذا كان هذا أمرًا ساذجًا فلماذا يبدأ به الأنبياءُ -عليهم الصلاة والسلام- ، ولماذا يُفني نوحٌ عُمرَهُ ألفَ سنةٍ إلَّا خمسينَ عامًا في محاربة وَدٍّ، وسُوَاعٍ، ويَغُوث ويَعُوقَ، ونَسْرٍ هذه الأصنام؟ لا دعوة إلى سِّياسة، ولا إلى قوانين، ولا إلى اقتصاد، ولا إلى اجتماع ولا إلى شيءٍ من هذا، وإن كانت هذه من الإسلام، لكن هناك مجتمعات هي بأشدِّ الحاجةِ إلى دعواتِ الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- فلا نبدأ معهم إلَّا بما بَدَأَ به الأنبياء عَلَيْهِم الصَّلَاةُ وَالسَّلَام - وما نقول إنَّ هذا شيءٌ ساذج .

الساذج الأبله الغبيُّ هو الذي يقول هذا الكلام، الذي لا يُدرِكُ خُطورةَ الشِّرك الذي قال اللَّه ﷻ فيه : ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، والذي قال اللَّهُ فيه : ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]، اللَّهُ بعثَ جميعَ الرُسُل وأنزل جَميعَ الكُتُب لمحاربةِ هذا الشِّرك، وتأتي الآن وتقولُ هذا شِركٌ ساذج! شرك ساذج هذا ؟! تقولُ مِثْلَ هذا الكلام؟ اللَّه يقول عظيم وخطير، وأنت تقول ساذج! ومع الأسف ناسٌ يُطَبِّلُون لهذا الكلام السَّخيف الساذج أهلُه البُلَهاء الأغبياء.

الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- أكمَلُ النَّاسِ عُقولًا وأرسَلَهم ربُّ العالمين ﷻ وأمرهم بالبدء بهذا بمحاربةِ عبادةِ الأوثان، والرسُّول ﷺ لما جاءه عمرُو بنُ عبسة - أخو أبي ذر لأمِّه - قال: من أنت ؟ قال: نبي، قال: ما معنى نبي ؟ قال: أرسلني اللَّهُ - الحديث في صحيح مسلم[1] - بماذا أرسلك؟ قال: «أَرْسَلَنِي بِأَنْ يُعبَدَ اللَّهُ وَحْدَه، وَأَنْ تُخلَعَ الأَوْثَان». وَإِذَا كَان يومُ القيامة «يأتي ربُّنا ويقول: تَتْبَعُ كلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعبُد، فيَذهبُ أهلُ الأَوْثَانِ مَعَ أَوْثَانِهِم»، ما يذهبون مع الزعماء، والرؤساء الذين يعتبرون الشِّركَ بهم هو الشِّرك الحضاري والشِّرك العظيم، ما يقول اذْهَب مَعَ فُلان، أو مع فُلان، «تَتْبَعُ كلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعبُد»، فمن كان يَعبُدُ الأوثان يَذهَبُ مع الأوثان، ويَذهبُ اليهودُ

(١) برقم (٨٣٢/ ١٩٢٧) كتاب صلاة المسافرين وقصرها . باب إسلام عمرو بن عبسة.

والنَّصارى مع العُزَيْر وعيسى، «**يَقُولُ لِلْيَهُود: مَنْ تَعْبُدُون؟ - أستغفر اللَّه العظيم - قَالُوا: نَعبُدُ العُزَيْر ابْنَ اللَّه، قَالَ: كَذبتُم، فَيُأمَرُ بهم إلى النَّار فيَذهبُونَ إلى النَّار يَحطِمُ بَعْضُها بَعْضًا، فَيَقُولُونَ: اِسْقِنَا رَبَّنا، فَيَجِدُونَ النَّارَ وهي يَحطِمُ بعضُها بعضًا، ويأتي النَّصَارَى فَيَقُولُ: مَنْ كُنتُمْ تَعْبُدُون؟ قالوا: نَعبُدُ عِيسَى ابنَ اللَّه. فَيُقَال لَهُمْ: كَذبتُم...**» الحديث[1]

المهمُّ أن هذا الشِّرك في ميزانِ اللَّهِ -تبارك وتعالى- شركُ عبادةِ الأوثان، وعبادةُ الأشخاص بالعبادةِ التي يَجبُ أن تكون للَّه، من دعاءٍ، واستغاثةٍ، وذَبحٍ، ونذرٍ، وتوكلٍ، هذا هو الشِّركُ الأكبر، والشِّركُ العظيم والذي يَجبُ أن يُحَارَب.

وأنا قلت في كتاب «منهج الأنبياء» - كلامًا حاصله -: أنَّ هذه الحضارة الآن التي انْبَهَرَ بها هؤلاء الدُّعاة، قياداتُها من حُكَّام، ومن مُهندسين، ومُفَكِّرين، ومن سياسيِّين، ومن أطباء إلى يومِنا هذا يَعبُدُون الأوثان، إلى الآن يَعبُدُونَ الأوثان، فرُءُوسُ النَّصارى، ومهندسُوهم، وأطبَّاؤُهم ومُفكرُوهم، وأدباؤُهم يعبدون الصَّليب، ويَعبدُون صُوَرَ عيسى ومريم، وأطبَّاء الهند والمهندسون، والحُكَّام، واليابان، والصِّين، وغيرُهم يَعبدون أوثانًا.

هذا هو أَشَدُّ البلاء الذي نُكِبَت به الإنسانية، وفي تأريخها إلى أن تأتي السَّاعة فتطوي هذه الحياة. يأتي زمانٌ على النَّاس يكونون فيه أَسْوَأَ من هذه الحال كما أَخبرَ الرَّسُول - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام - فيعودون إلى عبادةِ الأوثان، عبادةُ الأوثان أشدُّ الكفر، وأعظمُ ذَنْبٍ عُصِيَ اللَّهُ به، وأَرسلَ الرُسلَ كَلَّهَم لتَطهيرِ الأرض منهم، والقضاءِ عليه، ثُمَّ يأتي الشيطان هذا العَدُو الأَلَد؛ الشَّيطان ما يبدأُ بإفسَادِ النَّاس إلا في هذا الباب، يأتيهم من، باب المحَبَّة للأنبياءِ وللصَّالحين فيَجُرُّهم إلى عبادةِ صُوَرِهِم وتماثيلهم المُسَمَّاة بالأصنام والأوثان.

أقول هذا الكلام يا إخوة!؛ لأنَّ هناك دعواتٌ سياسية لها مرامٍ سياسية، وغاية سياسية، استهانت بكلِّ شيء، وجَعَلت الدِّينَ مطيةً لها إلى تحقيقِ أهدافِها، فَجعلُوا ما

---

(١) متفق عليه من حديث أبي سعيد ﷺ (خ/ ٤٥٨١) ك/ التفسير. باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ (م/ ١٨٢/ ٤٥٠) ك/ الإيمان، باب معرفة طريق الرؤيا.

يُسَمُّونه بالشِّركِ السِّياسي أفضَلَ من دَعوةِ الأنبياء، والشُّغل بغيرِه سَذاجة؛ لأنَّه شُغلٌ تافه، أمورٌ ساذجة؛ ولهذا تراهم لا يَتعَرَّضُون لِعُبَّادِ القُبور إلَّا مُجاملةً، أو خوفًا من السَّلفيين، وإلَّا فهم لا يَعبئُونَ بدعوة الأنبياء، فَسَوَادُهُم الأعظم الذين يَجمعُونَهم ويَحشِدُونَهم للوُصُولِ إلى هذه الغاية من عُبَّاد القُبُور وهي الأوثان لا فرقَ بين عِبادةِ القُبُور وعبادةِ الأوثان، ماذا يستفيد هذا المسكين الذي تَجمعُه معك باسم الإسلام وأنَّك مُسلم، وتهمل الغايةَ التي خُلِقتَ من أجلِها؟ لأن همَّك تسنُّم الكَرَاسي، تَبذُل أكثرَ ما عندك منَ الجُهود لتصِلَ إلى سدَّةِ الحُكْم.

وهذا الصِّنفُ من النَّاس بدايةُ دعوتِه فاسدةٌ منحرفة لماذا ؟ لأنَّه خالفَ الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- في منهجِهم، خالَفَهم في دعوتِهم، خالَفَهم فَقَفَزَ قَفزَةً هائلةً إلى آخِرِ مراحلِ الدِّين، فإنَّ الأنبياءَ -عليهم الصلاة والسلام- لا يَحكُمُونَ بين النَّاسِ إلَّا بعد أن تَصْلُحَ القُلوب، وتؤمن بما جاءوا به من الوحي، وتُسلِّمَ بما جاءوا به من العقائد، فإذا دانُوا اللَّهَ بما جاء به الأنبياءُ في هذه الأصول سَهُلَ انقيادهم في أبوابِ التشريعات، من الحلال والحرام والحدود، وما شاكلَ ذلك، وإن التَوَوْا واستكبروا وعاندوا في، باب التوحيد، فعدم انقيادهم للتشريع أولى وأولى .

وإنَّا لنَجدُ في أتباعِ هؤلاء السِّياسيين من يلتوي على دعوةِ اللَّهِ -تبارك وتعالى- ويُحَارِبُ التوحيد آخذًا في هذا المضمار ما أَخَذَهُ أعداءُ الرُسل -عليهم الصلاة والسلام- .

فعلى الدُّعاةِ إلى اللَّه إن كانوا صادقين يريدون للمسلمين العِزَّة والسِّيادة فليبدءوا بتصحيحِ العقائدِ التي استشرى فيها الفساد، ووصل كثير من المسلمين فيها إلى مُنحَدَرٍ سحيق، فتوحيدُ الأسماء والصِّفات قد عطَّلوه، وتوحيدُ العبادة قد ضيَّعُوه، ولهذا ضيَّعوا معنى لا إله إلَّا اللَّه؛ فلا إله إلَّا للَّه معناها عندهم: لا خالقَ، لا رازقَ إلَّا اللَّه ! ومن هنا أتاهم الضَّلال، من هنا ضلُّوا وتاهوا وتاهوا وتاهوا . . ! تقول له: أنت تخالف لا إله إلَّا اللَّه؟ يقول: أنا ما أخالفك؛ أنا أقول: لا إله إلَّا اللَّه، ما معنى لا إله إلَّا اللَّه ؟ لا خالقَ لا رازق! فإذا اعتقدَ أنَّ معنى لا إله إلَّا اللَّه: لا خالقَ ولا رازق إلا اللَّه فقد حقق التوحيد في نظره !!

قال: أنا آمَنتُ، أنا مُوحِّد، أدْعُو غيرَ اللَّه، أذبَحُ لغيرِ اللَّه، أنْذُرُ لغيرِ اللَّه، أستغيثُ

بغيرِ اللَّه . . لا أخَالِفُ لا إله إلَّا اللَّه، ولا أقعُ في الشِّرك ! بل هو في حمأةِ الشِّرك؛ لأنَّ لا إله إلَّا اللَّه معناها : لا معبودَ بحقٍّ إلَّا اللَّه، أما توحيدُ الرُّبوبية فله آياتُه الكثيرة الموجودةُ في القرآنِ الكريم، ولكن نُفَسِّرُ توحيدَ الرُّبوبية بالآيات التي نَزلَت فيه تُبَيِّنُه وتُوَضِّحُه، ولا نَذهَب إلى لا إلهَ إلَّا اللَّه فنُفْسِدُ معناها بهذا التفسير، تقول له : أنت تؤمن بتوحيدِ الرُّبوبية ! نعم حتى الكُفَّار يؤمنون بتوحيدِ الرُّبوبية، قريشٌ قبلك يؤمنون بتوحيدِ الرُّبوبية : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، لكن لما قالَ لهم مُحَمَّدٌ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَام - قولوا : لا إله إلَّا اللَّه . قالوا - كما أخبر اللَّه ﷻ عنهم - : ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، بخلاف الرُّبوبية؛ فقد قال اللَّه ﷻ : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، ما قالوا : واللَّهِ نحن ما نقول هذا الكلام، أقرُّوا بهذا وهم يُقِرُّونَ بهذا ولا يُكَابِرُون فيه، بل حتى يَعبُدون اللَّهَ إلى حدٍّ بعيد لكن جَعَلُوا مع اللَّهِ شُركاءَ في الألوهية، فيدعون غيرَ اللَّه، ويذبحون لغيرِ اللَّه، ويستغيثون بغيرِ اللَّه، يفعلون هذه الأشياء لأصنامِهم، ويعتقدون أنَّها تُقَرِّبهم إلى اللَّه زلفى، لا يقولون : إنَّها هي التي خَلَقَت، وهي التي رَزَقَت . . ولا يعتقدون فيهم أنَّهم أرباب، ولا يعتقدون فيهم أنَّهم يضرون وينفعون بأنفسِهم ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] ما يكابرون، لكن إذا قيل لهم لا إله إلَّا اللَّهُ يستكبرون .

أنا أحب أن يَفْقَهَ الشَّبَابُ هذه القضية، ويعرفوا الفَرْقَ فيما ذكرناه ومن واقعِ المشركين؛ فهم لا يكابرون في الرُّبوبية إنَّما كابروا واستكبروا في توحيدِ الألوهية ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥]، فهنا يأتي الصِّراع، ويأتي الخلاف، ويأتي القتال، وتأتي المشاكل بين الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وبين أُمَمِهم أمَّا أن تجاهدهم في توحيد الرُّبوبية لقالوا : نحن معكم، لو جاء وقال : آمنوا بأنَّ اللَّهَ خلقَ السَّماء، وخلق الأرض وخلقكم . . . يقولون لا خِلَافَ بيننا وبينكم، لكن ما كان الخِلافُ إلَّا في هذا، لكن مع الأسَف كما قلنا إنَّ من انحرفوا عن منهجِ الرُّسل واستهانوا بدعوتِهم، وطَرحوا في السَّاحة لشبابِ الأُمَّة منهجًا مخالفًا لمنهجِ الرُّسُلِ الكرام -عليهم الصلاة والسلام- .

على كلٍّ حال! القضية هامَّة جدًّا، ويجب أن يكون هو الحديثُ السَّائد في

اللقاءات، حتى يكون شبابُ الأمَّة على بصيرةٍ من دعوةِ الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- فيحملونها بكلِّ ما يستطيعون إلى المسلمين في مشارقِ الأرضِ ومغاربِها؛ فإنَّهم واللَّه ما ضَلُّوا أكثر ما ضَلُّوا إلَّا في هذا الباب، وإنَّهم لو أصلح الدُّعاة عقائدَ هؤلاء القوم في أبوابِ التوحيد لقامت الحكومات الإسلامية التي يَنشدُونها، ولما وجدتَّ صراعًا على هذه الكراسي، ما تَجدُ إلَّا قُلوبًا مُتَّحِدة على توحيدِ اللَّهِ -تبارك وتعالى-، ولكن أخطئوا الطريق، واستعجلوا هذه الغاية فعاقبهم اللَّهُ بنقيضِ قصدِهم وطالت عليهم الطريق.. ونحن وإن طالت الطريق فلن نخسر شيئًا؛ الذي يموت منَّا يموتُ عارفًا بربِّه عابدًا لربِّه مخلصًا له الدِّين ﷺ فنرجو له أن يلقى اللَّهَ راضيًا عنه.

وأمَّا أتباعُ أولئك فإنَّهم على غايةٍ خطيرة، فإنَّ كثيرًا منهم سيلقون اللَّهَ بالشِّركِ في توحيد العبادة، وفي توحيدِ الأسماءِ والصفات، بل في توحيد الرُّبوبية.

وفي هذه الأُمَّة خرافيُّون؛ روافض وصوفية، عندهم حلول وعندهم وحدة الوجود، وعندهم اعتقاد في الأولياء أنَّهم يعلمون الغيب، ويتصرَّفون في الكون، الشِّرك حتى في الرُّبوبية، كيف يتهاون بهذا الفساد العظيم في أصول الأصول دين الأنبياء جميعًا -عليهم الصلاة والسلام-؟! كيف يتهاون بهذا ويذهب للصراع على الكراسي؟! والذي يصل منَّا إلى كرسي يتشبث به ويديرُ ظهرَه للإسلام! وهذا موجود وأنتم تعرفون هذا.

الشَّاهد أنَّ الأُمَّة بأَمَسِّ الحاجة إلى إصلاحِ عقائدَها إصلاحًا جذريًّا، ولا يجوزُ البدء بشيءٍ قبل هذا، الإصلاح الاجتماعي والإصلاح الاقتصادي والإصلاح السِّياسي كلُّها تأتي بعد هذا الباب؛ كما هي طريقةُ الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ونسأل اللَّه أن يُبَصِّرنا جميعًا بديننا، وأن يوفِّقَنا للاعتصامِ بكتابه، وسنَّةِ نبيِّه ﷺ وأن يوفقنا لسلوكِ منهجِ الأنبياءِ -عليهم الصلاة والسلام- الذي أَمَرَنَا اللَّهُ به، وأَمَرَ رَسُولَه ﷺ بالاقتداءِ بهم ﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠].

نسألُ اللَّهَ أن يجعلنا وإيَّاكم من المُتأسِّينَ بهم المقتدين بهم المتبعين لمنهجهم، إنَّ ربنا لسميع الدُّعاء.

وصلى اللَّه على نبيِّنا محمّد وعلى آله وصحبه.

التوحيد أولاً

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمدَ للَّه نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسنا ومن سيِّئاتِ أعمالنا، من يهدِهِ اللَّهُ فلا مُضِلَّ له، ومن يُضْلِلْ فلا هادي له، وأشهد أن لا إلهَ إلَّا اللَّهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمّدًا عبدُه ورسولُه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠- ٧١].

أمَّا بعد: فإنَّ أصدقَ الحديثِ كلامُ اللَّه، وخيرَ الهدي هديُ محمَّدٍ ﷺ، وشرَّ الأمورِ محدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النَّار.

أمَّا بعد:

فموضوع هذا اللقاء في هذه الليلة المباركة - كما سمعتم - هو: «التوحيد أولًا»، لماذا التوحيد أولًا ؟ لأن هذا هو منهج اللَّه الذي شرعه لجميع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ، فما من رسول دعا أمته إلا وبدأ بالتوحيد، وإن كانت دعوات الأنبياء تشمل كل خير للبشر، كما قال النبي ﷺ: «إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ»[1] ، فالأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- يحملون كل السعادة إلى البشرية وكل ما يسعدهم، ولكن يبدءون بالأهم فالأهم.

والذي يتأمل القرآن يرى أن دعوات الأنبياء اشتركت في أصول عظيمة جدًّا منها:

(١) رواه مسلم في الإمارة، باب: وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول برقم (١٨٤٤). وغيره.

التوحيد، ومنها تقرير النبوات، ومنها تقرير البعث والجزاء، ولكن المحور الأساسي لدعواتهم والتي دار حولها الصراع بينهم وبين أممهم ؛ إنما هو التوحيد، وتوحيد العبادة بالذات، لأن توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات لا ترى في القرآن خلافًا بين نبي وبين أمته في شيء من هذا، يكذبون بالبعث لا شك وينكرونه، ولكن أشد ما يكذبون فيه هو: الدعوة إلى إخلاص الدين للّه -تبارك وتعالى-، فترى دعوات الأنبياء جميعًا كما بين اللّه ذلك في كتابه؛ أول شيء يبدءون به: إصلاح العقيدة، إصلاح ما أخلُّوا به في باب توحيد العبادة، إذ الشيطان دبَّر أول مكيدة لبني آدم - بعد تدبيره لأبيهم آدم حيث أوقعه في أكل الشجرة - المكيدة الكبيرة التي كاد بها البشر كانت في توحيد العبادة، إذ زيَّن لقوم نوح -عليه الصلاة والسلام- أن يتعلقوا بأشخاص صالحين، وأن يصوروا لهم تماثيل، فصوروا لهم تماثيل، فلما فَنِيَ الجيل الذي يعرف هؤلاء الأشخاص ؛ جاءهم الشيطان مرة أخرى وقال: ما نُصبت هذه التماثيل لهؤلاء الصالحين إلا لتُعبَد، واستمر نوح -عليه الصلاة والسلام- يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، كما قص اللّه ذلك في كتابه العزيز، وكان شرَّ قوم هم قومُ نوح وأظلمَ قوم هم قوم نوح وأطغى قوم هم قوم نوح، ولهذا دعاهم ألف سنة فما آمن معه إلا قليل، كم من الأجيال، كم من القرون قضاها نوح، ألف سنة إلا خمسين عامًا وهم ما ازدادوا إلا عنادًا وكبرًا حتى دعا عليهم فأهلكهم اللّه -تبارك وتعالى-، وأخرج اللّه من نوح ذرية مسلمة، ولكن سرعان ما التف عليهم الشيطان وأركسهم في حمأة الشرك باللّه ﷻ.

وهكذا كلما يأتي نبي ينقذ اللّهُ به مَنْ ينقذ مِنْ بني آدم فلا تمرُّ فترات قصيرة إلا ويأتي الشيطان ويكيدهم نفس المكيدة التي كاد بها قوم نوح، واستمر على هذه المكايد وسيستمر إلى يوم القيامة.

فينبغي لكل من يتصدى للدعوة إلى اللّه ﷻ أن يجعل هذه الدعوة دعوة الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- في مواجهة هذه المكايد التي يكيد بها الشيطان بني آدم على طريقة الرسل، واجهْ هذه المكايد، أول شيء تريد أن تبدأ به في إصلاح شعب من الشعوب هو البدء بالتوحيد، سواء الشعوب الإسلامية أو غير الإسلامية عندها انحراف شديد في هذا الباب.

فالداعي المخلص الذي يريد أن يترسم خطى الأنبياء ويريد أن يصلح إصلاحًا صحيحًا فأول ما يبدأ به معالجة هذا الانحراف، فإذا رأيت داعية يسير على خطى الأنبياء ويبدأ بما بدءوا به من الإصلاح؛ فثق أنه على هدى وعلى رشاد، وإذا رأيته حاد يمينًا ويسارًا إلى السياسة وغيرها ؛ فهذا يكون موضع ريبة ولا شك، كيف يحيد عن دعوة شرعها اللَّه للأنبياء والتزمها الأنبياء من أولهم إلى آخرهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ما هو الطاغوت هنا ؟ لأن فيه الآن إطلاق الطاغوت على غير الطاغوت الذي يقصده القرآن، ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾: عبادة الأوثان والشرك باللَّه ﷻ، فأصلح حطِّم هذه الطواغيت في نفوس أصحابها، وبعد ذلك إذا صلحت عقائد الناس ؛ صلحت سائر شئون حياتهم، فإذا رضي المسلم باللَّه ربًّا ومعبودًا لا معبود بحق سواه ؛ سوف لا يخضع لقوانين شرق ولا غرب أبدًا لأنه رضي باللَّه ربًّا وبالإسلام دينًا فسيرفض القوانين والتشريعات البشرية.

أما أن تبدأ بالانحراف السياسي - فقط - وتشغل الشباب بهذه الأشياء وتسدل الستار على دعوة الأنبياء ؛ هذا خطأ فادح أول ما يصاب به الدعاة أنفسهم، أول ما ينالهم شر هذه الدعوة، فلست - واللَّه - أعلم من اللَّه، ولست أرحم من اللَّه، ولست - واللَّه - أغير من اللَّه، ولا أغير من رسل اللَّه -عليهم الصلاة والسلام- مهما ادعيت.

طريق الإصلاح واضح، الأمة في كل زمان، والأمة الإسلامية من قرون تحتاج إلى الإصلاح العقائدي لأن الفساد العقائدي دبَّ إلى المسلمين من قرون، سواء في الأسماء والصفات التي أظن ما انحرفت فيها الأمم السابقة، وفي توحيد العبادة، إذا رحت تجوب بلاد العالم في أي بلد شئت ترى من الانحراف في عقائد المسلمين وأعمالهم حول القبور ما يخجل منه اليهود والنصارى والوثنيون، كيف نتجاهل كل هذه الأشياء ونذهب نربي الشباب تربية سياسية فقط، والشرك أمامهم، الشرك الذي حاربه الأنبياء وأفنوا حياتهم في محاربته وأهلك اللَّه الأمم لمخالفتهم للأنبياء في هذه المسألة بالذات، ليست من أجل سياسة ولا غيرها، أهلكهم من أجل مخالفة الأنبياء في هذا الباب، فيا شباب الإسلام لا يخدعنكم بريق السياسة ومطامعها ومغرياتها، عليكم بنهج الأنبياء.

ولهذا ترى أيَّ مصلح صادق مخلص عَرَفَ الإسلام حق المعرفة أول ما يبدأ بمعالجة هذه الأشياء؛ ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ جاء وقد جثمت كوابيس الخرافات والبدع على الأمة الإسلامية شعوبًا وحكومات، فبدأ يعالج هذه الأمور، الانحرافات الشركية والانحرافات في باب أسماء اللَّه وصفاته، بدأ بهذه الأمور.

وجاء الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ الرجل الثاني والمجدد الثاني حق التجديد بعد ابن تيمية، وانطلق من حيث انطلق الرسل ومن حيث انطلق المصلحون.

الذين يحملون رايات هذه الدعوات ولا يلتزمون هذا الباب؛ ما عرفوا هذا الباب ولا عرفوا قيمته ولا عرفوا خطورة الشرك، بكل صراحة ما عرفوا هذه الأشياء، تربوا في بيئات لا تحفل بالعقائد، وجدوا صراعات سياسية بين الأحزاب فأخرجوا أحزابًا تحمل شعارات إسلامية لا يعرفون دعوة الأنبياء فجاءوا وأطبقوا بسياستهم على شباب بلاد التوحيد، وهم ما عرفوا التوحيد ولا عرفوا الشرك ولا أدركوا مكانة التوحيد ولا خطورة الشرك فمع الأسف انتشرت دعواتهم في بلاد التوحيد على خلاف منهج الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وهذا واللَّه غزو فكري مركز على أبناء التوحيد، ونحن نكافح من سنين لتعود الأمور إلى نصابها، ولكن الشباب مخدوعون -مع الأسف الشديد- وينقادون لمن يركض بهم في ميادين بعيدة عن ميادين الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، وعن ميادين المصلحين، فيجب على الشباب أن يفيق وأن يدرك أهمية التوحيد.

واللَّه لا نرى ولاء ولا براء في كثير من الشباب على توحيد اللَّه، وتجد كثيرًا من الشباب يوالي عباد القبور وأعداء التوحيد، ويحارب حملة راية التوحيد، هذا موجود، وما سببه إلا تلاعب هؤلاء الجهلة بعقول شباب التوحيد وأبناء التوحيد، جهلة ما عرفوا توحيد اللَّه ولا عرفوا دعوة الأنبياء، ولا عرفوا مكانة هذه الدعوة، ما عرفوها، وجاءوا في وقتٍ أقام الإنجليز في الدول الغربية وفي بلاد المسلمين أحزابًا، هذا بعثي، وهذا شيوعي، وهذا علماني، وهذا كذا، فقال السياسيون الإسلاميون: نقيم أحزابًا سياسية، ويدخلون في صراعات مع الأحزاب هذه ومع الحكومات، كله صراع سياسي، والإسلام، والإسلام، والإسلام، شعارات فقط، وجدوا العلمانية، الشيوعية، البعثية، منبوذة في بلاد المسلمين، قالوا: نرفع شعارات إسلامية، فرفعوا شعارات إسلامية لكنها

جوفاء، واللَّه جوفاء ميتة، لأنها خالية من الاهتمام بالتوحيد ومحاربة الشرك.

ولهذا ترى منابع هذه الدعوات التي غزت هذه البلاد ملوثة بالشرك، ولم يغيروا في بلدانهم شيئًا، وإلى يومك هذا يموت كبار أساطين هذه الدعوات يموتون على الخرافات والبدع، بل ويذهبون إلى القبور ويقدمون لها النذور ويقدمون لها الزهور ويركعون لهذه القبور، الشرك عندهم لا خطورة فيه أبدًا، والتوحيد هذا لا قيمة له عندهم، بل يرون أنه يُفرِّق الأمة، كيف ما يعقل أبناء التوحيد هذه المكايد وهذه البلايا التي دهمتهم وفرَّقتهم ومزقتهم لأجل دعوات جوفاء، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، لا إله إلا اللَّه، هذه (لا إله إلا اللَّه): لا حاكم إلا اللَّه - عندهم، أخص خصائص الألوهية (لا حاكم إلا اللَّه)، هذا التفسير يجعلك ترى الشرك أمامك كأنك لم ترَ شيئًا، الشرك الذي يحاربه الأنبياء لا تراه شيئًا، هذا التفسير تحريف لمعنى (لا إله إلا اللَّه)، ثم جعلوه نوعًا رابعًا من أقسام التوحيد، حيلة، ثم بعد أيام يُسَرِّبون المعاني الأساسية لـ: لا إله إلا اللَّه وتبقى الحاكمية، افهموا المكايد السياسية.

(لا إله إلا اللَّه) معناها: لا معبود بحق إلا اللَّه، ما هي العبادة؟ الصلاة، الصوم، الزكاة، الحج، الذبح، النذر، التوكل، الرجاء، الرغبة، الرهبة، هذه تُصرَف للَّه وحده لا تصرف لأحد، أما (لا حاكم إلا اللَّه) فلا تدخل في معنى (لا إله إلا اللَّه) أبدًا، لأن ما معنى (لا إله إلا اللَّه)؟ لا معبود بحق إلا اللَّه، عابد ومعبود، اللَّه معبود، والمخلوقون عابدون، فالعبادة: فعل المخلوقين، افهموا هذا، العبادة فعل المخلوقين يتقربون بها إلى اللَّه، يركع، يسجد، يخضع، يبكي، يتوكل، يرجو، يخاف، هذه كلها صفات وأفعال المخلوقين، ليست صفات الخالق، تعالى اللَّه عن ذلك، فإذا قلنا (لا حاكم إلا اللَّه) معناها: لا عابد إلا اللَّه، تعالى اللَّه وتنزَّه عن ذلك، افهموا، هذا التفسير باطل.

الذي نَكَب المسلمين هو التفسيرات الفاسدة لـ: لا إله إلا اللَّه، واللَّه نُكِب المسلمون بالتفاسير الباطلة من المتكلمين والفلاسفة وغيرهم، قالوا: (لا إله إلا اللَّه) معناها: لا خالق لا رازق، لا محيي، لا مميت إلا اللَّه، تراه يعبد القبر، يذبح، ينذر، يسجد، يقول لك: يا أخي! أنا لا أعبده، أنا لا أعتقد فيه أنه يضر أو ينفع، لأن الضار النافع هو اللَّه، أنا لا أقول: إنه خالق، لأني أعتقد أن الخالق هو اللَّه، لكن لا يفهم أن

أعماله هذه التي يتقرب بها إلى الأموات وغيرهم هي العبادة التي تنافي (لا إله إلا اللَّه)، فهموا (لا إله إلا اللَّه) فهمًا سيئًا خاطئًا بعيدًا كل البعد عن المعنى الأساسي لـ «لا إله إلا اللَّه»، والذي جاء به جميع الأنبياء، فراحوا؛ يذبحون لغير اللَّه، وينذرون لغير اللَّه، ويستغيثون بغير اللَّه، وصنوف الشرك وقعوا فيها، لماذا؟ لجهلهم بمعنى (لا إله إلا اللَّه)، فلما تأتي السياسة - في هذا العصر - وتُضيف معنى جديدًا إلى هذه التفسيرات الفاسدة ؛ زاد الناس هلاكًا.

واللَّه لولا بقايا قوة دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب والمنهج السلفي - في هذا البلد - لرأيتَ الآن أهل هذا البلد يسجدون للقبور، لكن هذه حمتهم، ولكنها إلى حين - إن لم يُتدارك الأمر، الأمر خطير والمسألة ليست بالسهلة حتى ننام عنها وندغدغ عواطف من يعبثون بعقول الشباب ونتملقهم ونسكت عنهم بل نؤيدهم ونشجعهم على هذا الانحراف السياسي الذي دهموا به هذه البلاد، بلاد التوحيد.

محمد بن عبد الوهاب وإخوانه وأبناؤه وأنصاره قد بذلوا جماجمهم لتصحيح معنى (لا إله إلا اللَّه)، فتأتي هذه السياسة الجاهلية فتُحبِط هذه الجهود العظيمة وتضع بديلًا لها معانٍ سياسية من أناس ما عرفوا دعوة الأنبياء، بل يحاربونها ويهوِّنون من شأنها، ويَصرفون الناس عنها، لأن أكثر هؤلاء السياسيين خرافيون قبوريون، السياسيون الذين وضعوا هذه الأشياء أكثرهم قبوريون خرافيون أعداء لدعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب، ولهذا خططوا الخطط الخطيرة لنسف هذه الدعوة، واللَّه ركَّزوا على أبناء هذه البلاد، وبذلوا من الجهود والمكايد ما لم يُبذَل مثله في الدنيا كلها، فتجد كثيرًا من أبناء هذه البلاد يُصدِّر هذه الدعوات الفاسدة إلى العالم، ويرصد لها من الأموال ما لو سخَّره في سبيل اللَّه لغيَّر واقع كثير وكثير من الخرافيين.

واللَّه لولا هذا الغزو الماكر لرأيتَ العالم الإسلامي على غير الحال التي يعيشها الآن من الذل والهوان، لأن الناس بدءوا يعرفون دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب.

محمد بن عبد الوهاب كاد له الصوفية والروافض وأهل الضلال كلهم، ودول الغرب والشرق، كادوا لدعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب، وأنا لا أستبعد أن هؤلاء

الذين غزوا هذه البلاد أن بينهم اتفاقيات لحرب هذه الدعوة، اتفاقيات سياسية، بريطانيا أكبر عدو لدعوة التوحيد، وحاربتها في الهند أكثر من مائة سنة وفي باكستان، وتحاربها ولا تحارب أي دعوة مثل هذه الدعوة، ولهذا ترى رءوس الدعوات السياسية ليس لهم مأوى إلا عند بريطانيا، يخدمونها بمحاربة هذه البلاد، بلاد التوحيد، وتؤويهم لهذه الأهداف السياسية ويضحكون على أبنائنا، ويروجون لهذه الدعوات المجرمة المحاربة لدعوة التوحيد، والتي خططت الخطط وكادت المكايد لسحق دعوة التوحيد.

واللَّه الذي لا إله إلا هو، لقد زرت اليمن قبل ثلاثة عشر أو أربعة عشر سنة، ونُقِل لي عن أحد هؤلاء الغزاة أنه قال: (لقد سحقنا الدعوة السلفية في عقر دارها)، هكذا جاءوا لسحق الدعوة السلفية في عقر دارها، ويرى أنهم قد نجحوا في تنفيذ خططهم.

فيا أبناء التوحيد! لا يضحك عليكم هؤلاء الخرافيون القبوريون، واللَّه لو آمنوا بالتوحيد وآمنوا بدعوة الأنبياء، وعرفوها حق المعرفة؛ لما بدءوا إلا بها، ولبدءوا بإصلاح شعوبهم، كثير وكثير من شعوبهم غارقون في الشركيات والبدع، وهم يساهمون في تأكيد وترسيخ هذه الخرافات.

اذهب إلى مصر منشأ دعوة الإخوان المسلمين، اذهب لمناسبة عيد ميلاد البدوي، سترى رءوس الإخوان يشاركون في هذه الأعياد الشركية التي يخجل منها اليهود، واذهب لباكستان حيث دعوة المودودي، سترى البلاء وترى الشرك بأصنافه من الوثنيين ومن الخرافيين القبوريين، ومن غيرهم، ولا ترى دعوة المودودي تحرك أي ساكن تجاه هذا الكفر والشرك، وإنما - بارك اللَّه فيك - تشغل الناس بالسياسة.

ثم إن هذه السياسة تجعلهم يتحالفون مع الشيوعيين، وتجعلهم يؤاخون الروافض، ويؤاخون أصناف أهل الشرك للوصول إلى أهدافهم السياسية، ونحن ما أفقنا، ومرت علينا الصيحات ومرت علينا الدعوات ومرت علينا التنبيهات، فما يزيد كثير منا إلا كبرًا ونفورًا، مغتبطًا بما عند هؤلاء من الخرافات والأباطيل.

اقرأ تفسيرات هؤلاء لـ(لا إله إلا اللَّه)، لا خالق لا رازق لا موجود، لا مهيمن لا مسيطر، زيادة على ذلك: لا حاكم إلا اللَّه، فزادوا الناس بُعدًا عن توحيد اللَّه وعن دعوة

الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ، ولهذا يهونون من التوحيد، ونصف ساعة تكفي للتوحيد، وعشر دقائق تكفي للتوحيد، كل هذا من صرف الناس عن التوحيد وللتقليل من أهميته بل لإهانته، ما هذا اللعب ؟ وأكبر داعية إلى هذا الضلال والتحريف السياسي لدعوات الأنبياء -واللَّه- مقدسين، ودعاة التوحيد عملاء وجواسيس، سبحان اللَّه ! ، دعاة التوحيد عملاء وجواسيس ؟!

الاتهامات الشيوعية والعلمانية التي وُجدت في البلدان الأخرى أيام الاستعمار البريطاني نقلوها إلى بلاد التوحيد، وإلى علماء التوحيد، فعلماء التوحيد جواسيس وعملاء، الدولة كافرة، دولة مسلمة تطبق كتاب اللَّه وسنة الرسول ﷺ جعلوها كافرة، حرب عليها من كل مكان، لو يأتي صدام، لو يأتي الخميني، لو يأتي أي عدو لهذه البلاد يقفون إلى جانبه، كيف ؟ لأنهم جهلوا التوحيد، مساكين ! وما عرفوا قيمة التوحيد.

يا أخي ! التوحيد في مدارسك في الابتدائي في المتوسط في الثانوي في الجامعة في الدراسات العليا، نعمة عظيمة يا أخي، لا يوجد هذا في هذا الوقت في الدنيا كلها، تكريم علماء التوحيد، ماذا تريد يا أخي ؟ يا أخي يوجد أخطاء واللَّه، صحح بلطف، أما أن تجعلهم كفارًا وتحاربهم، والذي ينصحهم ويتصل بهم تجعله عميل وجاسوس، يا أللَّه ! هذا الدمار ورب السماء، وهذه واللَّه مكايد الأعداء، أخذوا أطفالًا مساكين، أخذوهم أطفالًا من أحضان أمهاتهم وغرسوا فيهم هذه الأفكار السيئة القبيحة المشوهة للتوحيد وأهله، واللَّه إننا نعرف أن هؤلاء الغزاة يأتي المسكين من روسيا أول ما يعلمونه الطعن في العلماء وتكفير حكام هذه البلاد، يأتي لا يعرف توحيدًا ولا أصول الإسلام ولا فروعه، أول ما يغرسون فيه بغض هذه العقيدة وأهلها، كيد، من يعقل الآن هذا الكلام، هناك أناس لا يعقلون هذا الكلام يا إخوة، ادرسوا، تأملوا، ادرسوا دعوة الأنبياء، ادرسوا القرآن .

أنا أكتفي بهذا القدر في توحيد العبادة، وأريدكم أن تقرءوا القرآن، القرآن مليء بتعظيم اللَّه جل جلاله سبحانه وتعالى، وهذا التعظيم كله يقودك إلى ألا تعبد إلا اللَّه، ويقودك إلى أن تعرف معنى (لا إله إلا اللَّه) حق المعرفة، وتحترمه .

هذه الآيات التي يسوقها اللَّه في بيان جلال اللَّه وعظمته وآياته في الكون، كل ذلك يريد منك أن تعبده بتوحيد العبادة، كل هذه الأدلة لإقناع من يحيد عن توحيد العبادة بهذه الأدلة والبراهين، إن توحيد العبادة لابد منه وهذه أدلته وبراهينه، فاقرأ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، ثم ساق الأدلة لبيان أن اللَّه هو المعبود الحق وحده، ويجب أن تعبده وحده وساق الأدلة وبيَّن لك النعم التي أفاضها عليك وأسبغها على البشر.

﴿ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ هو الذي خلقك، من نطفة ثم من علقة ثم أعطاك السمع والبصر والعقل، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾، يا اللَّه! ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، واللَّه إن عرضت عليهم - على الكفار - يقولون لك: إن اللَّه هو الخالق الرازق، وهذا الكلام كله يعرفونه، لكن كثيرًا منهم عاندوا وأبوا أن يلتزموا توحيد العبادة الذي بُعث به جميع الأنبياء، ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾، كم من النعم تترتب على إنزال المطر، حبوب، وثمار، فواكه، تعيش فيها تسرح وتمرح، ثم تذهب تعبد غيره.

الآن المسلم يعيش في هذه النعم ويذهب يخضع للبدوي ويجعل منه ندًّا للَّه، وللرفاعي وعبد القادر وفلان وفلان، تلاقيه يضيف إلى الشرك في العبادة؛ الشرك في الربوبية، فيعتقدون في الأولياء أنهم يعلمون الغيب ويتصرفون في الكون، هذه العقيدة ما دارت في ذهن أبي لهب وأبي جهل، كيف دخلت على المسلمين؟ أدخلها الزنادقة، لأنه لا يوجد دين أهان اليهودية وأهان النصرانية وأهان المجوسية وأهان الوثنية كلها مثل الدين الذي جاء به محمد ﷺ، فما حقدوا على ديانة كما حقدوا على الديانة الإسلامية، فشرع المجوس واليهود والزنادقة من اليهود، والزنادقة من النصارى، وغيرهم، يكيدون للإسلام، وأتوا للمسلمين بعقائد وثنية - نعوذ باللَّه - قد تكون زادت على ما عند الوثنيين، يعلمون الغيب ويتصرفون في الكون.

وإذا قرأت في ترجمة عبد القادر - عند هؤلاء الضُّلَّال - ؛ تجد أنه أكبر من اللَّه ﷻ، وإذا قرأت في ترجمة البدوي والرفاعي ؛ تجد أنهما أكبر من اللَّه ﷻ - تعالى اللَّه عما يقول

الظالمون علوًا كبيرًا - ، من أين جاء هذا ؟ من دسِّ الزنادقة، زنادقة اليهود والنصارى، ولصرف أهل الكلام والفلسفات المسلمين عن معنى (لا إله إلا اللَّه)، وعن معاني التوحيد، راجت هذه الأساطير التي قد يستخف بها اليهود والنصارى، راجت واللَّه في أوساط الخرافيين.

ثم إن مثل هذه الآيات قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١]، آيات كثيرة في عظمة اللَّه وأنه وحده المستحق للعبادة، لأن كل ما تراه فوقك وتحتك وعن يمينك وعن يسارك، الجبال والسماء والنجوم والكواكب كلها خلْقُ اللَّهِ وتدبيره، وسخر كل هذه الأشياء لخدمتك لتقوم بهذه العبادة التي خلقك من أجلها، كل هذه النعم، ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، اللَّه تعالى يسوق لك هذه الآيات وهذه الدلائل وهذه البراهين وتبقى تتخبط في ظلمات الجهل، ويأتي أي ملحد أو زنديق أو أي سياسي ماكر يصرفك عن دعوة التوحيد فتركض وراءه.

تأملوا القرآن يا إخوة ! وتدبروه، القرآن ينمي الإيمان، والقرآن ينمي التوحيد، والقرآن - إذا فهمته - صرت من أتباع الرسل في دينهم وعقيدتهم ومنهجهم، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، الدين: التوحيد، أقيموا هذا التوحيد، إذا أقمت التوحيد ؛ استقام لك كل شيء، وإذا احترمت التوحيد ووالیت عليه وعاديت عليه ؛ استقام لك كل شيء، لا تضعه في سلة المهملات وتوالي وتعادي على غيره.

أنا أعرف أن كثيرًا من الناس عرفوا التوحيد لكن معرفة هامشية، يضعه في سلة المهملات ويذهب يوالي ويعادي على غيره، لا، الولاء والبراء على التوحيد، ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

لا يحصل هذا الشيء لمن يستهين بالتوحيد ويحتقره ويوالي ويعادي على أفكار سياسية منحرفة، هذا الوصف ليس لهؤلاء، الذي يؤمن بالتوحيد حق الإيمان، ويحترم التوحيد، ومن أجل احترامه يوالي ويعادي من أجل هذا التوحيد، واللَّه الولاء والبراء - الآن - ليس على التوحيد عند كثير من الناس، الولاء والبراء ليس من أجل العقيدة، الولاء والبراء من أجل فلان وفلان، فلان وفلان من أضل الناس في دين اللَّه وفي معنى (لا إله إلا اللَّه)، يوالون من أجل فلان وعلَّان، ليس من أجل اللَّه، ليس من أجل توحيد اللَّه، ليس من أجل منهج الرسل، ليس من أجل القرآن، ولكن من أجل فلان وفلان، هذا بلاء، هذه داهية دهت الأمة.

يا شباب هذه البلاد ويا شباب المسلمين في كل مكان اعرفوا دعوة الرسل ومنهج الرسل، اعرفوا منهج الرسل، واعلموا أن المسألة ليست اختيارية، واجب حتمي على كل من يدعو إلى اللَّه بصدق أن يبدأ بالدعوة إلى التوحيد، والدليل: أن اللَّه شرع هذا المنهج لجميع الأنبياء وسار عليه الأنبياء من أولهم إلى آخرهم ومحمد ﷺ بدأ بالتوحيد، ثلاث عشرة سنة لم يدع إلى التشريعات الأخرى، لم تشرع الصلاة -أهم أركان الإسلام- قبيل الهجرة، ولم تُشرع الزكاة إلا في العهد المدني لأهمية التوحيد ولأنه الأصل، والرسول ﷺ ما تزحزح عنه شعرة واحدة، ويأتون ويطلبون منه أي مطلب، يريد ملكًا يعطوه، يريد أفضل فتاة في قريش يزوجوه، يريد المال يعطوه؛ وهو يقول: لا أريد منكم إلا هذا، ويبايع الناس على هذا ويجاهد على هذا -أي: التوحيد-.

رَسُول اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ**»، ليس معنى (لا إله إلا اللَّه): لا حاكم إلا اللَّه ؟! بل لا معبود بحق إلا اللَّه، بل كان رسول اللَّه ﷺ يركز على شهادة أن لا إله إلا اللَّه.

حتى لما جاءت فتنة الردة، ما وجد عمر ما يستشهد به في صرْف أبي بكر عن قتالهم إلا قوله: كيف نقاتل قومًا يقولون (لا إله إلا اللَّه)، وقد سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ»، كان أبو بكر ما يحفظ إلا هذا من كثرة ترداده عليه الصلاة والسلام، وتركيزه على دعوة التوحيد، ثم سمع عمر وسمع أبو هريرة وسمع جابر ﷺ تكملة الحديث، الصلاة والزكاة وغيرها، أما أبو بكر وعمر فما سمعاها، واللَّه لو سمعاها لما اعترض عمر على أبي بكر، ولأجابه أبو بكر ببقية الحديث - رضي اللَّه عنهم جميعًا - ، وهذا من الأدلة على أن الفاضل العالم الكبير قد يفوته ما يعلمه من هو دونه بمراحل، هذا موجود - بارك اللَّه فيكم .

من الآيات التي تدل على تعظيم اللَّه -تبارك وتعالى-، كل شيء يعظم اللَّه، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨]، كل شيء خاضع للَّه، كل شيء يسبح اللَّه راضيًا أو غير راض، الكافر رغم أنفه خاضع للَّه -تبارك وتعالى-، يخلقه كما يشاء، يجعله فقيرًا، يجعله غنيًّا، يمرضه، يشفيه، يهلكه، يفعل به ما يشاء، فهو من هذه الناحية خاضع للَّه مصدق للَّه ﷻ شاء أم أبى، الجمادات، الأشجار، الدواب، هذا يدل على عظمة اللَّه -تبارك وتعالى-، فكل شيء يعظم اللَّه .

يا أخي عظِّم اللَّه، وتعظيمه بتوحيده وإخلاص الدين للَّه الذي بعث به جميع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- .

مما يرسخ عقيدة التوحيد أن نعرف أسماء اللَّه وصفاته، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٣-٢٤] .

هذه الأمور من الأسماء والصفات؛ مما نُكب فيه كثير من الناس، لمكايد الفلاسفة، ومكايد من تأثر بهم من الجهمية وغيرهم من المعتزلة وغيرهم، نُكبوا في هذا الباب، فأنكروا أن اللَّه استوى على العرش، وأنكروا أسماء اللَّه، والجهمية أنكروا هذه الأسماء، والمعتزلة أنكروا الصفات، وإنكار علو اللَّه، واستوائه على عرشه؛ أدى بهم إلى عقيدة الحلول ووحدة الوجود، لأنهم ينزهون اللَّه عن أن يكون فوق الكون فوق المخلوقات، ويقولون: إنه في كل مكان، ويقولون: لا فوق ولا تحت ولا يمين ولا يسار، ولا داخل العالم ولا خارجه ولا، ولا، فإما يجعلونه معدومًا، وإما يجعلونه حالًّا في كل شيء، وهذا نهاية التنقص للَّه رب العالمين، فيزعمون للناس وللببغاوات من أتباعهم أنهم ينزهون اللَّه، لماذا ؟ يقولون: لأننا إذا أثبتنا أنه فوق العرش ؛ أثبتنا له الجسمية، ويقولون: لأن الاستواء يلزم أن يكون للَّه جسمًا، ويستلزم - عندهم - أن اللَّه تعالى إما أن يكون أكبر من العرش أو دونه أو فوقه . . . إلخ، كلام فارغ، يعني ينفون عن اللَّه التجسيم فيقعون في التعطيل .

أهل السنة يقولون: استواء يليق بجلاله ليس كاستواء المخلوقين، كما قال اللَّه -تبارك وتعالى-: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وهذه الآية أخذ منها أهل السنة الذين هداهم اللَّه لما اختلف فيه الناس، أخذوا منها ومثيلاتها قاعدة في الإيمان بأسماء اللَّه وصفاته وأفعاله ﷻ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾، لا في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاته، فنزَّهوه عن مشابهة المخلوقات، وأثبتوا له ما أثبته لنفسه -جل وعلا- من الأسماء والصفات والأفعال مع تنزيه اللَّه عن مشابهة المخلوقات، فالآية تقول: أثبتوا الأسماء للَّه ﷻ والصفات مثل قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، وانفوا عنه التشبيه بناءً على قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾.

فضَلَّت المشبهة وقالوا: إن اللَّه له أسماء كأسمائنا، وبصر كأبصارنا، واستواء كاستوائنا . . . إلخ، وجاءت المعطلة ونفوا عن اللَّه -تبارك وتعالى- مماثلة المخلوقين، وأغرقوا في ذلك حتى أدى بهم هذا الإغراق إلى نفي أسماء اللَّه وصفاته .

وبعضهم ينفي الصفات، ولا ينفي الأسماء، وبعضهم يثبت الأسماء ويثبت بعض الصفات وينفي الباقي كالأشعرية .

والمهم أن الغزو الفكري جاء مبكِّرًا من أعداء الإسلام، الآن الناس يتصورون أن الغزو الفكري جاءنا في هذا العصر، لماذا ؟ لأنهم لم يستنكروا الخرافات والبدع وتعطيل الصفات، لا يرونها منكرًا لأن هذه عقائدهم فتصوروا أن الغزو الفكري بدأ في هذا العصر، مساكين !، وجاءوا يغزون بلاد التوحيد بخرافاتهم وبدعهم، والغزو الفكري بدأ من قبل أيام المأمون، أيام الجهم بن صفوان، من ذلك الوقت بدأت المكايد للإسلام، واتجه الكيد إلى صميم الإسلام؛ أولًا: إلى تعطيل الأسماء والصفات وإنكار بعض العقائد . . . إلخ، وأخيرًا: على أيدي الصوفية إلى توحيد العبادة، فهذه الأمور أدت إلى تعطيل أسماء اللَّه وصفاته وكثير من العقائد ثم أدى في النهاية كلام المتكلمين وتحريفاتهم لـ(لا إله إلا اللَّه)، وتأثر الصوفية بذلك ؛ أدى إلى فساد عريض وهو الوقوع في الشرك.

واللَّه نذهب إلى بعض البلدان ترى مدنًا تشاد على القبور ما كان الجاهليون يعرفونها، مدن تشاد على القبور، وتذهب بعض البلدان؛ فترى مدنًا، وترى الأشجار تعلق فيها الخرق يعتقدون فيها البركات، وترى قبور الكلاب والحمير والحيوانات تعبد من دون اللَّه، جناية عظيمة، والدعوات السياسية - واللَّه - ترى هذه الأشياء وتقرها، فتذهب بعيدًا بعيدًا عن دعوة الأنبياء ومنهجهم، وعن دعوة التوحيد الذي هو محور الرسالات كلها، يذهبون بعيدًا بعيدًا إلى صراعات سياسية باسم الإسلام.

نحن نقول هذا لا نطعن في الناس، نريد أن نبصِّر المخدوعين بهذه الشعارات التي تهلك المسلمين، ولا تغني عنهم شيئًا، واللَّه إن هذه الشعارات لا تزيد المسلمين إلا بلايا، ولا تزيدهم عند اللَّه إلا ذلًّا وهوانًا، حتى يعودوا إلى منهج الأنبياء، وإلى عقيدة التوحيد فيصححونها في مدارسهم وجامعاتهم وفي بيوتهم وفي عقولهم وقلوبهم، إذا صححوا هذه العقائد، وصححوا الأعمال القائمة عليها ؛ فليبشروا بالنصر، وليبشروا بالسعادة في الدنيا والآخرة، وإذا أبوا إلا التمسك بهذه الشعارات الفاسدة ؛ واللَّه ما تزداد الأمة إلا ذلًّا وهوانًا!

انظروا هذا التصرف مع أعداء الإسلام، وانظروا إلى مواقف المسلمين -لا حول لهم ولا قوة- هم الآن يتجاوزون المليار لكن غثاء كغثاء السيل - إلا من وفَّق اللَّه -

لماذا؟ لأنهم ضيعوا -واللَّه- التوحيد، فلا يبال اللَّه في أي وادٍ هلكوا، سلط عليهم أذل الناس: اليهود والهنادك وأمثالهم من النصارى، اليهود ضُربت عليهم الذلة والمسكنة أينما ثُقِفوا، الآن يطئون بأقدامهم على رءوس المسلمين، والهندوك أذل منهم، واللَّه يهينون المسلمين، إيش الخلاص ؟ الرجوع إلى التوحيد .

كيف ينصركم اللَّه؛ والأوثان عندكم أكثر من الأوثان عند النصارى واليهود ؟!

كيف ينصركم اللَّه؛ وكثير منكم يعتقدون في الأولياء أنهم يعلمون الغيب ويتصرفون في الكون ؟!

وتخضعون للضعفاء الفقراء الذين لا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، واللَّه لا يملكون لأنفسهم شيئًا .

وإذا كان رسول اللَّه ﷺ يقول اللَّه له: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، ماذا تريد بعد هذا ؟ هذا الكلام حق أو باطل ؟ لسان حال هؤلاء القبوريين يقول: لا، هذا الكلام ليس بصحيح - وإن كانوا لا يكذبونه لفظًا - لكن واقعهم أنهم لا يقبلون هذا الكلام، لا بل يقولون: الأولياء يضرون وينفعون، والرسول يضر وينفع، إذن يا أخي أنت تعاند القرآن إذا كانت هذه عقيدتك، إذا كنت تعتقد هذا ؛ واللَّه كفر هذا، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا﴾ [الجن: ٢١]، ماذا تريد؟ لا يملك لنفسه، ولا يملك لغيره وبنته وغيرها قال لهم: لا أُغني عنكم من اللَّه شيئًا، قال: «يا بني عبد مناف يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ -أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا- اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا»[1]، ماذا تريد بعد هذا ؟!

---

(١) رواه البخاري في التفسير، باب: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾، برقم (٤٧٧١). ومسلم في الإيمان، باب: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾، برقم (٢٠٦)، وغيرهما .

أمر اللَّه رسوله ﷺ أن يقول: ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨] ويقول: ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الشعراء: ١١٥]، هذه مهمتي، اللَّه أوحى إلي القرآن وبلَّغته، أُبشِّر المؤمنين بالجنة وأحذِّر الكافرين من النار، هذا الذي أملكه والذي أقدر عليه، أما ضُر ونفع وإسعاد وإشقاء وهداية وإضلال فكلها للَّه رب العالمين، أما إني أعلم الغيب، لا، ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ [الأعراف: من ١٨٨]، ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠]، ماذا تريد بعد هذا البيان؟ ما فائدة هذا البيان للمسلمين؟!

اليوم يأتي دعاة السوء ودعاة الفتن يضربون صفحًا عن هذا التوحيد وأدلته، يضربون صفحًا واللَّه، التوحيد يُفرِّق - في نظرهم -، يقولون بلسان حالهم أو مقالهم: إذا نادينا إلى التوحيد من يأتي معنا؟ نحن نريد أن نصل إلى الكراسي بسرعة، فإذا قلنا التوحيد التوحيد؛ ذهب الناس عنا، ما نَصِل، نريد أن نُجمِّع الناس، الرافضي أخونا، النصراني أخونا، والخرافي القبوري أخونا، كلهم إخواننا حتى نصل بسرعة، طيب وصلوا بسرعة ماذا فعلوا؟ وحدة أديان، ومؤتمر وحدة أديان، وغيرها، هذا يكفيكم، أنه لما وصل جماعة من أهل هذه الدعوات إلى الكراسي؛ أداروا ظهورهم لما كانوا يُمَنُّون به الناس، لا يعطونك شريعة، ولا عقيدة، بل تشاد الكنائس، وتشاد القبور، وعقد مؤتمرات وحدة الأديان، وهؤلاء السياسيون يتجمعون من العالم ومن كل الدنيا، ويشاركون في مؤتمرات وحدة الأديان، هذا دليل على أن الدعوات هذه فاسدة من أساسها ومقاصدها وأهدافها كلها سيئة، فإذا وصلت إلى ما تريد أدارت ظهورها للشعارات الإسلامية التي ينادون بها.

هذه أمثلة مشاهدة ملموسة، واللَّه أبناء التوحيد عندنا لا ينكرون هذه الأشياء، لماذا؟ لأنهم غيروا عقولهم، أنا لم أسمع كلمة إنكار لمثل هذه الأوضاع، تكررت مثل هذه المهازل في عدد من البلدان ولا تسمع نكيرًا من هؤلاء السياسيين الذين مُنوا أصيبوا في دينهم، أصيبوا في مقاتلهم على أيدي هذه الدعوات السياسية، فأصبحوا لا ينكرون على هذه الدعوات السياسية شيئًا، ولو دعتْ إلى وحدة الأديان، ولو شادت الكنائس، ولو شادت القبور، ولو، ولو، فهذه عبرة، الصادق المخلص في دينه إذا انخدع ثم تبين

له أن الذي يقوده يقوده إلى المهالك ؛ يرفضه ويمشي في طريق الإسلام، أما أنك تستمر تصفق له وتتستر عليه وتدافع عنه هذا غلط .

فهذه الدعوات - غير دعوات الأنبياء - التي لا تقول: التوحيد أولًا، بل تقول: السياسة أولًا، الاقتصاد أولًا، التصوف أولًا، الخرافات أولًا، هذه لا قيمة لها ولا ينال المسلمون ولا يجنون من هذه الدعوات إلا الموت والهلاك والضياع، فالحياة الطيبة والحياة السعيدة في الدنيا والآخرة متوقفة على التوحيد، على تحقيق معنى (لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه)، واللَّه ينصرنا اللَّه ويُعزنا ويكرمنا في الدنيا والآخرة، وإن أبينا إلا المضي في طريق رسمه لنا منجرفون قبوريون خرافيون ؛ فواللَّه ما ننتظر من اللَّه إلا الهوان والذل، ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ١٨] .

أكتفي بهذا القدر، وأسأل اللَّه -تبارك وتعالى- أن يهيئ للمسلمين دعاة صادقين مخلصين يحترمون دعوة الأنبياء ويدعون إليها ويبذلون النفس والنفيس والغالي والرخيص في رفع كلمة (لا إله إلا اللَّه) إلى درجة القتال دونها .

أسأل اللَّه أن يهيئ دعاة يعرفون منهج الأنبياء ويعرفون معنى (لا إله إلا اللَّه) لينفع اللَّه بهم المسلمين، ويرفع بهم شأن المسلمين، ويعيد بهم المسلمين إلى سابق مجدهم الذي أعزهم اللَّه وأكرمهم ورفعهم وجعلهم سادة الدنيا وسادة الأمم وخير أمة أخرجت للناس، وما نالوا ذلك إلا بتحقيق (لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه) يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون باللَّه، أسأل اللَّه أن يجعلنا وإياكم منهم .

وصلى اللَّه على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

حق اللَّه على العباد

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمدَ للَّه نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسنا ومن سيِّئاتِ أعمالنا، من يهدِهِ اللَّهُ فلا مُضِلَّ له، ومن يُضْلِلْ فلا هادي له، وأشهد أن لا إلهَ إلَّا اللَّهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمّدًا عبدُه ورسولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠- ٧١].

أمَّا بعد: فإنَّ أصدقَ الحديثِ كلامُ اللَّه وخيرَ الهدي هديُ محمدٍ ﷺ وشرَّ الأمورِ محدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعة وكلَّ بدعةٍ ضلالة وكلّ ضلالةٍ في النار.

أيها الإخوة والأبناء إنها لفرصة طيبة مباركة أن نلتقي بإخواننا وأبنائنا في بيت اللَّه -تبارك وتعالى- وفي طلب مرضاته ﷻ وفي التعرف على ما يتيسر لنا من العلم فيما يتعلق بحق اللَّه -تبارك وتعالى- وحقِّ المسلمين، وهذه أمورٌ عظيمةٌ جدًّا في الإسلام، لابدَّ للمسلم أن يعرفها ويقف عند حدود اللَّه فيها، فيجب علينا معرفة اللَّه -تبارك وتعالى- بأسمائه وصفاته العُلا؛ كما دلَّ على ذلك كتابُ اللَّه وسنةُ رسوله ﷺ؛ فللَّه أسماء يجب أن نؤمن بها، وللَّه صفات يجب أن نؤمن بها، وللَّه حقوقٌ من عبادته وحده، وإخلاصِ الدِّين له، من صلاة وصيام وصدقة وبِر ودعاء وخوف ورجاء وتوكل، هذه بعض حقوق اللَّه -تبارك وتعالى- التي يجب أن نعرفها حقَّ المعرفة في ضوء كتاب اللَّه وسنة رسول اللَّه ﷺ وعلى طريقة المؤمنين الذين لا يجوز للمسلمين أفرادًا وجماعات أن يحيدوا عن طريقهم في هذا الباب وفي غيره من أبواب العقائد والأحكام.

هذه أمور ليست بالسهلة ولا ينبغي للإنسان أن يتهاون فيها؛ لأنَّ اللَّه ما خلقه إلا

ليعرف ربَّه ويعرف حقَّه ويعبده حقَّ عبادته ﷻ؛ فالله يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

وحينما كان رسول الله ﷺ يبعث رُسُلَه وأمرَاءَه وقُوَّادَ جيوشه كان يأمرهم بالدَّعوة إلى الله -تبارك وتعالى- وإلى معرفة الله ﷻ وإلى معرفة دينه الحق؛ فلمَّا بَعَثَ مُعاذًا إلى اليمن قال: «**إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ؛ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه**» وفي رواية: «**فَلْيَكُنْ أَوَلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ أَنْ يَعْرِفُوا اللَّهَ -تبارك وتعالى-**» والشهادة لله بالوحدانية وبالألوهية لا تأتي إلا بعد معرفته؛ فلا خلاف بين الرِّوايتين «**فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّه وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّه؛ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَة؛ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمَ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدَّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ؛ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُوم فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَاب**»[1].

فهذا الحديث فيه طلب معرفة الله -تبارك وتعالى- بأسمائه وصفاته؛ فنعرف الله بجلاله وعظمته وأنَّه ربُّ هذا الكون وسيِّده ومالكه، وأنَّه على عرشه استوى كما أخبر بذلك في آيات كثيرة، وأنَّه في السَّماء، وأنَّه ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠] وأنَّه كان معراج رسول الله ﷺ إلى ربِّه -تبارك وتعالى- إلى السَّموات العُلا، ومَرَّ في هذه اللَّيلة على الأنبياء، في كلِّ سماء نبي أو نبيان حتى وصل ﷺ إلى مستوى سمع فيه صرير الأقلام، وكلَّمه ربُّه ﷻ وفرض عليه الصَّلوات الخمس، فرضها أولًا خمسين، ثم نزل إلى موسى عليه السلام فسأله ماذا افترض الله على أُمَّتك؟ قال: «**افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسِينَ صَلَاةً فَقَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ وَإِنِّي قَدْ جَرَّبْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي ذَلِكَ فَعَجَزُوا أَوْ نَكِلُوا؛ فَرَاجِعْ رَبَّكَ وَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ** -فَمَا زَالَ يُرَاجِعُ رَبَّهُ -تبارك وتعالى-

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (٣/ ٣٥٧رقم١٤٩٦ - فتح) ومسلم في الصحيح (١/ ٢٧٢رقم١٩ - نووي) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

مَرَّاتٍ يَصْعَدُ إِلى اللَّهِ وَيَنْزِلُ إِلى مُوسَى حَتَّى تَحَوَّلَتْ الخَمْسِين إِلَى خَمْسٍ- ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ قَالَ مُوسَى: رَاجِعْ رَبَّكَ، قَالَ: إِنِّي اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي فَقَالَ اللَّهُ ﷻ: هُنَّ خَمْسٌ وَهُنَّ خَمْسُونَ في الأَجْرِ»[1].

فهذه من الأمور التي يجب أن يعرفها المسلم؛ يعرف جملتها، وعلى طلاب العلم أن يعرفوا تفاصيلها؛ فإنَّ هناك أمورًا محتمة ومتعيِّنة على كلِّ فرد أن يعرفها.

فمن الأمور المتعيِّنة على كلِّ شخص: هي الشهادة للَّه بالوحدانية ولمحمد ﷺ بالرِّسالة، والإيمان باللَّه وأسمائه وصفاته، والإيمان بملائكته ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، وأنَّ هناك خمس صلواتٍ مكتوبة يجب أن يتعلم المسلم ما تصح به الصلاة وما يفسدها، وأنَّ هناك زكاة واجبة على المسلمين؛ فإذا كان ذا مالٍ؛ فيجب أن يعرف تفاصيل هذه الزَّكاة، وأنَّه يجب عليه الحج؛ فإذا تعيَّن عليه الحج وتوفَّرت شروط الوجوب فعليه أن يعرف تفاصيل الحج وما يصح به وما يفسده، وكذا يعرف من المحرَّمات، مثل تحريم الخمر، وتحريم الخنزير، وتحريم الرِّبا، وتحريم الزِّنا، وأكل مال اليتيم بالباطل، وما شاكل ذلك من الأمور التي يتعيَّن على كلِّ مسلم حُرًّا كان أو عبدًا ذكرًا كان أو أنثى، عليه أن يعرف هذه الأمور في جملتها، ويعرف من تفاصيلها ما يتعيَّن عليه معرفته.

ثم يجب أن يكون هناك من طلَّاب العلم من يعرفون فروض الكفايات والتفاصيل في العقائد الغيبية وفي الشَّرائع وفي الحلال والحرام يتعيَّن معرفتها على العلماء وطلَّاب العلم، وينبغي لكلِّ مسلم أن يُعِدَّ نفسه لأن يكون من طلَّاب العلم؛ ليعرف اللَّه ويعرف دينه ويعرف رسوله ويعرف شرائع الإسلام ثم يدعو إليها، هذا أمر لابدَّ منه وأن يكون في المسلمين من يقوم به.

فينبغي لكلِّ من تتوفر فيه الكفاءة أن يُرَشِّحَ نفسه أن يكون ممن يقوم بهذه الفرائض، فرائض الكفاية؛ فيؤديها للمسلمين ويؤديها عن المسلمين؛ فإذا توفر العدد الكافي

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (١/ ٤٥٨رقم٣٤٩ - فتح) ومسلم في الصحيح (٢/ ٢٨٤رقم١٦٣ - نووي) من حديث أبي ذر وأنس بن مالك رضي الله عنهما.

للنُّهوض بهذا الواجب لم يبق على سائر المسلمين إلا معرفة ما يتعيَّن عليهم معرفته، يجب على العامي وسائر أفراد المسلمين أن يعرفوا ما أوجبه اللَّه عليهم من فروض الأعيان، ثم بعد ذلك الدعوة إلى اللَّه والجهاد في سبيله والبِر بالمؤمنين واحترام أموالهم وأنفسهم وأعراضهم.

فإنَّ كثيرًا من النَّاس يتساهلون في هذه الأمور، في حقوق اللَّه -تبارك وتعالى- وفي حقوق المسلمين ولاسيما في هذه الأيام، كثر الظلم وانتهاك الأعراض ظلمًا وبغيًا وعدوانًا أعراض المؤمنين الأبرياء، وخاصَّة من يدعون إلى منهج اللَّه الحق وإلى منهج السلف الصالح يدعون إلى كتاب اللَّه وإلى سنة رسول اللَّه ﷺ فيتصدى لهم أهل الأهواء وأهل الفتن بالطَّعن والتشويه على طريقة أعداء الأنبياء؛ فإنَّ هذه الأصناف تؤذي ورثة الأنبياء الدُّعاة إلى دين اللَّه وشرعه، فيجب أن يرجع هؤلاء إلى اللَّه، وأن يتوبوا إلى اللَّه، وأن يُدركوا أنهم وقعوا في وادٍ من أودية الهلاك - والعياذ باللَّه - حيث يصدُّون عن سبيل اللَّه الحق بتصرفاتهم هذه ومواقفهم التي تصدُّ عباد اللَّه عن دين اللَّه، وعن شريعة اللَّه، وعن منهج اللَّه الحق، ويجب على هؤلاء أن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يقفوا بين يدي اللَّه -تبارك وتعالى- ؛ فيحاسبهم الحساب الشَّديد، وليعرفوا أنَّه ما من كلمة يقولونها إلا وهي مُسجَّلة في صحائف سيئاتهم السَّوداء، ما من كلمة باطل يقولونها للصدِّ عن سبيل اللَّه وتشويه أوليائه والدعاة إلى منهجه إلَّا سوف يحاسبهم اللَّه -تبارك وتعالى- عليها وسوف يوفيهم جزاءهم إلا أن يتوبوا إلى اللَّه وينيبوا إليه ويُكَفِّروا عن هذا الأمر الذي وقعوا فيه وأوقعوا فيه كثيرًا من النَّاس.

قال الرسول ﷺ: «**إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ من رِضْوَانِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لها بَالًا يرفع اللَّه بها دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ من سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لها بَالًا يهوي بها في جَهَنَّمَ**»[1].

فيجب أن يَتَحَرَّى الكلام الذي يرفعه عند اللَّه درجات، ويبتعد عن الكلام والأقوال

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (١١/ ٣٠٨رقم٦٤٧٦ - ٦٤٧٧ - فتح) ومسلم في الصحيح (١٨/ ١٥٨ رقم ٢٩٨٨ - نووي).

والشَّائعات الظالمة التي تهوي به في جهنَّم إلى دركات ودركات - والعياذ باللَّه - .

قال اللَّه ﷻ : ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وقال النَّبي ﷺ «وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ في النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»(١)، فنعوذ باللَّه ونعوذ باللَّه من هذا المصير؛ أن نحصد شرور ما تجنيه ألسنتنا .

فقيِّد لسانك بتقوى اللَّه -تبارك وتعالى- ومراقبة اللَّه، واستشعر أنَّك ما يخطر في قلبك من باطل وشر إلا وربك مُطَّلِع عليه ﷻ ولا يتحرَّك لسانك بشرٍّ وباطل إلا واللَّه مراقبك والملائكة يكتبون ذلك عنك ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٤].

ويقول الرَّسول الكريم ﷺ «عَلَامَةُ المنَافِقِ أَرْبَعٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»(٢)، هذه من علامات النِّفاق «إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ» كأن تكون بينك وبينه خصومة في أمر دنيوي أو أمر ديني فيذهب يفتري الأكاذيب الظالمة وينهش أعراض الأبرياء الذين يخاصمونه، ويشيع هذا في أرجاء الأرض ويذهب كثيرٌ من النَّاس يردِّد هذا الباطل ويحارب الحق ويخاصم - والعياذ باللَّه - في باطل، وقد قال النَّبي ﷺ: «مَنْ خَاصَمَ في بَاطِلٍ لَمْ يَزَلْ في سَخَطِ اللَّهِ -تبارك وتعالى- حَتَّى يَنْزِعَ مما قال، وَمَنْ قَالَ في مُؤْمِنٍ مَا لَيْسَ فِيه أَسْكَنَهُ اللَّهُ رَدْغَةَ الخَبَالِ حَتَّى يَخْرُجَ مما قَالَ»(٣).

---

(١) صحيح لغيره :
أخرجه الطيالسي في المسند (٧٦رقم٥٦٠) وعبد الرزاق في التفسير (٣/ ١٠٩) وأحمد في المسند (٥/ ٢٣٦، ٢٣٧) والترمذي في السنن (٥/ ١١رقم٢٦١٦) والنسائي في السنن الكبرى (٦/ ٤٢٨رقم١١٣٩٤) وابن ماجه في السنن (٤/ ٣٤٢رقم٣٩٧٣) والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٤٧) من حديث معاذ بن جبل ﷺ .
قال الترمذي : «هذا حديث حسن صحيح».
وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه».
والحديث صححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٦٥٦رقم٣٩٧٣).
(٢) أخرجه البخاري في الصحيح (١/ ٨٩رقم٣٤ - فتح) ومسلم في الصحيح (٢/ ٦١رقم٥٨ - نووي) من حديث عبد اللَّه بن عمرو ﷺ.
(٣) صحيح لغيره :
أخرجه ابن فضيل في الدعاء (٢٦٩رقم٩٣) وأحمد في المسند (٢/ ٨٢) وأبو داود في السنن (٣/ ٣٠٥=

هذه أمور عظيمة جدًّا، خصوصًا إذا كانت الخصومة في دين اللَّه؛ في الصِّراع بين الحق والباطل وفي الصِّراع بين المناهج الصحيحة والمناهج الفاسدة وفي الصِّراع بين العقائد الصحيحة والعقائد الفاسدة، فما يكتفي الإنسان بفساد منهجه وفساد عقيدته ويقف عند هذا الحد الخطير، بل يتجاوز ذلك إلى مخاصمة الحق بالباطل -والعياذ باللَّه-؛ فهذا يسكنه اللَّه -تبارك وتعالى- في ردغة الخبال، وردغة الخبال كما فَسَّرَها رسول اللَّه ﷺ: «هي صديد أهل النار»، لعل هذه المنطقة التي يسكن فيها المخاصم في الباطل، والمتقوِّل على الأبرياء ما ليس فيهم هي أخسُّ زوايا جهنم وأقذرها وأنتنها وأخبثها - والعياذ باللَّه - إن لم ينزع عمَّا قال ويتوب إلى اللَّه.

فلينظر المسلم فإنه إذا خاصم أهل الحق فإنما يخاصم اللَّه -تبارك وتعالى- إنما يحارب اللَّه -تبارك وتعالى- ويحارب دينه ﷻ ولن ينفعه أهل الباطل إذا انتصر لهم بالأكاذيب والشَّائعات والافتراءات، لن يغنوا عنه من اللَّه شيئًا، وسوف يتبرأ بعضهم من بعض، وسيصبح بعضهم يلعن بعضًا؛ كما قال ﷻ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، المتَّقي هو الذي يلتزم أوامر اللَّه، ويجتنب نواهيه ويحفظ قلبه ولسانه وجوارحه من كلِّ ما يغضب اللَّه ومن كلِّ ما يسخط اللَّه، ويُلزم قلبه ومشاعره وجوارحه كلَّ ما يرضي اللَّه -تبارك وتعالى-.

فعلينا أيها الإخوة أن نتحرى مرضاة اللَّه -تبارك وتعالى-، وأن نتجنَّب مساخطه في عقائدنا ومناهجنا وعباداتنا وأعمالنا وأقوالنا، ونخلص الدِّين للَّه -تبارك وتعالى- كما أمرنا اللَّه -تبارك وتعالى- ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البيِّنة: ٥] ما أُمِروا إلا بهذا، وما أُمِروا بالأكاذيب والأباطيل والافتراءات - والعياذ باللَّه -، بل نهاهم اللَّه أشدَّ النهي وتوعدهم أشدَّ الوعيد على الباطل وارتكاب الباطل في الأقوال والأفعال

=رقم٣٥٩٧) والطبراني في المعجم الأوسط (٦/ ٣٠٩رقم٦٤٩١) والمعجم الكبير (١٢/ ٣٨٨رقم١٣٤٣٥) وأبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢١٩) والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٧) والبيهقي في السنن الكبرى (٦/ ٨٢) من حديث عبد اللَّه بن عمر ﷺ.

قال الحاكم: «صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبي، ووافقهما الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ٢/ ٧٩٨ رقم٤٣٧).

والتصرُّفات.

فلنتحرَّ مرضاة اللَّه -تبارك وتعالى- ولنخلص للَّه ديننا بأن نُمحِّص عقائدنا من شوائب الأباطيل والخرافات والبدع والكهانة والسِّحر والالتفاف حول السَّحرة والكهنة والمشعوذين؛ بل نلتفُّ حول أهل الحق ونطلب منهم دين اللَّه الحق، ونتعلم منهم العقائد الحقة الصحيحة الصادقة المستمدَّة من كتاب اللَّه ومن سنة رسول اللَّه ﷺ، ونخلص للَّه في أقوالنا ونخلص للَّه في أفعالنا، ونخلص للَّه في سائر تصرُّفاتنا؛ فإنَّنا عباد اللَّه، وما خُلقنا إلَّا لعبادة اللَّه، وما أمرنا إلَّا بإخلاص الدِّين للَّه؛ كما قال ﷻ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البيِّنة: ٥] يعني مائلين عن الباطل وعن الشِّرك إلى الحق إلى مرضاة اللَّه -تبارك وتعالى- ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾.

إقامة الصَّلاة وما أدراكم ما إقامة الصَّلاة! فإنَّ المؤمن الحق إذا وقف في الصَّلاة ترتعد فرائصه خوفًا من اللَّه -تبارك وتعالى-؛ فإنَّه في موقف رهيب بين يدي جَبَّار السَّموات والأرض وهو يناجي اللَّه -تبارك وتعالى-، فليخشع للَّه -تبارك وتعالى-، وهذه الصَّلاة مليئة بتوحيد اللَّه -تبارك وتعالى- أركانها كلُّها قائمة على توحيد اللَّه ﷻ؛ حينما تدخل في الصَّلاة تقول: «اللَّه أكبر» تُوَحِّد اللَّه -تبارك وتعالى- وتعترف بعظمته وجلاله وأنَّ كلَّ شيء يتضاءل ويتلاشى أمام عظمة اللَّه وكبريائه ﷻ، وحينما تقرأ أمَّ القرآن المشتملة على توحيد اللَّه، هذه الفاتحة مشتملة على توحيد الأسماء والصِّفات وعلى توحيد العبادة وعلى ذكر الجنة وأهلها والنار وأهلها، لا يُدرك ذلك إلَّا الفقهاء الذين يفقهون دين اللَّه.

فإنَّ قولك: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ١] هذا جَمَع كلَّ أنواع التوحيد ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، لا نعبد إلا إيَّاك ولا نخلص الدين إلا لك لا نصلي ولا نصوم لانزكي ولا ندعوا لا نتوكل ولا نستغيث إلا بك ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾في أمور ديننا ودنيانا كلِّها؛ فلا حول لنا ولا قوة إلا بك؛ فهذا توحيد بل التوحيد كله مداره على قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٤] ولهذا يقال لهذه السُّورة أمّ القرآن لأنها جمعت حقائق التوحيد والأحكام والحلال والحرام والجنة والنار ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦ - ٧]، فيه

براءة من اليهود وفيه براءة من النَّصارى وفيه براءة من كل أهل الشِّرك وأهل الضَّلال وأهل البدع والخرافات، فيه تولي أولياء اللَّه -تبارك وتعالى- والدَّعوة إلى أن يسلكنا اللَّه -تبارك وتعالى- في صراطه المستقيم وفي سبيلهم الواضح.

ثم تقول: «اللَّه أكبر» وتهوي إلى الرُّكوع تعظِّمه ﷻ «سبحان ربي العظيم» هذا توحيد وتتصوَّر عظمة اللَّه -تبارك وتعالى- وأنَّ الكون كلَّه تحت قهره وخاضع لتدبيره وتنظيمه، وكلٌّ من في السَّموات والأرض يخشعون له ويَذِلُّون أمامه؛ كما قال ﷻ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥].

وأمورٌ عظيمةٌ إذا سجد؛ قال النَّبيُّ ﷺ «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِد»[1]، حينما تكون في هذه الصَّلاة قائمًا وراكعًا فأنت قريب من اللَّه -تبارك وتعالى- ؛ لأنَّك تتصوَّر أنَّ اللَّه يراك، فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك وهذا مقام الإحسان؛ فأنت في هذه الصلاة قريبٌ من اللَّه تناجيه لكنَّك أقرب ما تكون من اللَّه -تبارك وتعالى- حينما تكون في السُّجود وتقول: «سبحان ربي الأعلى وبحمده»، وهذا قرب الرُّوح من اللَّه ﷻ- ؛ فاللَّه فوق سمواته مستوٍ على عرشه، وأنت في الأرض ساجدٌ للَّه يقرب روحَك، لأنَّك تتصوَّر عظمة اللَّه وجلاله وتخشع له وتذل له وأنت حينئذٍ في غاية الذُّل وغاية الخشوع لعظمته وجلاله.

فأنت إذن في حال أنت فيها أقرب إلى اللَّه -تبارك وتعالى- من كلِّ الأحوال سواءً كنت في داخل الصَّلاة أو في خارجها.

فليتصوَّر المسلم في صلته باللَّه وفي صلاته وفي ذكره للَّه يتصور أنَّ اللَّه يراه، ويعبد اللَّه كأنَّ اللَّه يراه؛ لأنَّه إذا استصحب هذا المقام؛ مقام مراقبة اللَّه -تبارك وتعالى- خشع للَّه، وصحَّت صلاته، وتمَّت صلاته أركانها وشروطها وواجباتها على أكمل الوجوه؛ ولهذا يقول اللَّه تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ٣]، إلى أن يقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح (٤/٢٦٦رقم٤٨٢ - نووي) من حديث أبي هريرة ﷺ.

هذا أمر عظيم فلندرك أهمية العقيدة وأهمية التوحيد وأهمية الصَّلاة التي هي الرُّكن الثاني بعد الشَّهادتين؛ لأنَّ جبريل عليه السلام جاء إلى الرَّسول ﷺ يسأله ليُعَلِّمَ النَّاس دينهم، فجبريل عليه السلام سَأَلَ أسئلةً عظيمة، وأجاب عليها رسولُ اللَّه ﷺ إجابةً عظيمةً استوفت أمورَ الدِّين وهو الحديث المشهور بحديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الصَّحيح أنَّه قال: «بَيْنَمَا كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ جَاءَنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ»[1]، وهذه جلسة علَّم فيها المسلمين كيف يكون الأدب مع رسول اللَّه ﷺ، وبالتَّالي كيف يكون الأدب مع العلماء الذي كاد يتضاءل وكاد يتلاشى في هذه الفترة العصيبة؛ فسأل رسولَ اللَّه عليه السلام: «**أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلَامِ، فَقَالَ: الإِسْلَامُ: أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّه، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُه**» لأنَّ من عادة الجاهل إذا سأل عن أشياء لا يعرفها لا يقول للمجيب صدقت وإنما يقول صدقت من يعرف تلك الإجابة «فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُه».

«**قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَان قَالَ: الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّه وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمُ الآخِرِ وَبِالقَدَرِ خَيْرِهِ وِشَرِّهِ قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ قَالَ: الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لم تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ قَالَ: مَا المسْئُولِ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائل قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتها قَالَ: أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا وَأَنْ تَرَى الحُفَاةَ العُرَاةَ العَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي البُنْيَانِ؛ ثُمَّ ذَهَبَ وَمَكَثَ مَلِيًّا؛ فَقَالَ رسول اللَّه ﷺ: أَتَدْرُونَ مَنِ السَّائِل ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَم قَالَ: ذَلِكَ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ لِيُعَلِّمَكُمْ دِينَكُمْ**»؛ فهذه الأمور يجب على عوام المسلمين وخواصِّهم أن يعرفوها حقَّ المعرفة، يعرفها من يعرفها إجمالًا ويؤمن بها حقَّ الإيمان ويطبِّقها في حياته، ويعرف العلماءُ تفاصيلَها، والعامِّي يجب عليه من تفاصيلها ما تصح به صلاته وزكاته وصومه وحجه وعقيدته وإيمانه.

---

(١) رواه أحمد (١/ ٥١ - ٥٢) ومسلم (كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان) برقم (٨).

فأسأل الله -تبارك وتعالى- أن يطهِّر قلوبنا من الأحقاد والزَّيغ والظلم والحسد، وأن يطهِّر ألسنتنا من الافتراء والكذب، وأن يُلزمنا الصِّدق وأن يجعلنا وإيَّاكم من الصَّادقين وممن يتحرَّون الصِّدق و«**إِنَّ الصِّدْقَ لَيَهْدِي إِلَى البِرِّ وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا**»[1] فالصِّدق من أسُس الفضائل لا تستقيم الحياة إلا به، والكذب والفجور من المعاول الهدَّامة التي تهدم الأخلاق وتهدم العقائد والأديان وتهدم المجتمعات وتفسد الحياة فليحذره المسلمون؛ لهذا يقول ﷺ: «**وَإِنَّ الكذب ليهدى إلى الفجور وإن الفجور ليهدى إلى النار وإن الرجل لَيَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا**»؛ فنسأل الله -تبارك وتعالى- أن يوفقنا وإيَّاكم لتحرِّي الصِّدق حتى نُكتب عند الله من الصِّديقين، وأن يُجنبنا غوائل الكذب والفجور حتى لا نكون - والعياذ بالله - فجارًا ولا من المكتوبين عند الله من الكذَّابين، - ونسأل الله أن يعافينا ويعافي جميع المسلمين، وأن يتوب علينا وعليهم من جميع الذنوب صغائرها وكبائرها؛ إنَّ ربنا لسميع الدعاء.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

(١) أخرجه مسلم في الصحيح (١٦/ ٢٤١رقم٢٦٠٧ - نووي) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.

التوحيد يا عباد اللَّه!

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمدَ للَّه نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسنا ومن سيِّئاتِ أعمالنا، من يهدِهِ اللَّهُ فلا مُضِلَّ له، ومن يُضْلِلْ فلا هادي له، وأشهد أن لا إلهَ إلَّا اللَّهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمّدًا عبدُه ورسولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠- ٧١].

أمَّا بعد: فإنَّ أصدقَ الحديثِ كلامُ اللَّه، وخيرَ الهدي هديُ محمَّدٍ ﷺ، وشرَّ الأمورِ محدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النَّار.

قال اللَّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٠ - ٢٢]؛ فاللَّه ﷻ ينادي النَّاس على مُختَلَف أجناسهم من أسود وأبيض وأحمر، وعلى اختلاف مِلَلِهِم ونِحَلِهِم من مسلمين ومشركين ووثنيِّين وأهل كتاب ومنافقين وغيرهم ممن تشملهم كلمة النَّاس؛ لأنَّ رسول اللَّه محمدًا ﷺ خاتَمَ النَّبيين أرسله اللَّه إلى العالمين إلى النَّاس أجمعين؛ قال اللَّه ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبا: ٢٨] وقال ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، فاللَّه ﷻ ينادي النَّاس جميعًا ليقوموا بالواجب العظيم الذي خَلَقَهم من أجله، وهو عبادته وإخلاص الدِّين له ﷻ، وإنَّ هذه العبادة غايةٌ عظيمة من أجلها خَلَقَ اللَّه الجِنَّ والإنس والملائكة وسائر خلقه، وَسَخَّرَ ما في السَّموات وما في الأرض لهؤلاء المخلوقين العُقَلَاء المُكَلَّفِين؛ ليقوموا

بهذه الغاية العظيمة والواجب الأصيل الكبير الذي ما خَلَقَ اللَّه هذا الكون إلا من أجله.

وقوله ﷻ: ﴿رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ أي: سَيِّدُكم وخالقكم ومُرَبِّيكم، والمنفرد بإسداء النِّعم إليكم، وإسباغِها عليكم ﷻ، فهو المُتفرِّد بكلِّ ذلك، وساق الأدلة التي تَفرِضُ عليهم وتوجب عليهم أن يعرفوا اللَّه ويعترفوا بحقِّه فيعبدوه فقال ﷻ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ أي: مَهَّدَها ووَطَّأَها وذلَّلها، وأرساها بالجبال، ومهَّد لهم الطرق، وجعل خلال الجبال فجاجًا؛ ليعيشوا عليها ويبتغوا الرِّزق في مناكبها، وأسبغ عليهم كلَّ النعم؛ ليعبدوه على هذه الأرض.

وقوله ﷻ: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ المراد بالسَّماء هنا: السَّحاب؛ لأنَّ السَّماء كلُّ ما سما وعلا؛ فكلمة سماء تتناول كلَّ ما علا هذه الأرض ومن فيها؛ فالسَّحاب فوقنا فهو سماء، والسَّموات السبع نسمِّيها سموات؛ لأنَّها فوقنا من السُّمو وهو العلو، ونقول: اللَّه في السَّماء أي فوق السَّموات كلِّها؛ لأنَّه فوق كلِّ شيء ﷻ.

وقوله ﷻ: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾: من كُلِّ أنواع الثِّمار المعروفة عند البشر، فاللَّه أنزل المطر وصَبَّه على الأرض صبًّا كما قال ﷻ: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤ - ٣٢] هذه الأنواع المذكورة في سورة عبس وفي غيرها من السُّوَر هي هذه الأرزاق التي أَجْمَلَ ذكرها في قوله ﷻ: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾.

فالشاهد من الآيات أنَّ اللَّه هو ربكم وسيِّدُكم ومالككم، وخالق السَّماء وخالق الأرض... ؛ فهو الذي يستحق العبادة وحده؛ فاعرفوا هذه العبادة التي كُلِّفتم بها من كتاب اللَّه ومن سنة رسول اللَّه ﷺ؛ لأنَّك إذا لم تعرف حقَّه الذي هو العبادة كيف تعبده؟!

لابدَّ أن نتعلَّم العبادات التي شرعها اللَّه ﷻ من الواجبات والمستحبات وسائر التطوعات، التي من أعظمها بعد الشهادتين الصَّلاة؛ المكتوبات الخمس وسائر

التطوعات من الرواتب كالوتر، وسُنَّة الفجر التي قال فيها رسول اللَّه ﷺ: «رَكْعَتَا الفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»[١] والنوافل كصلاة الضُّحى، وقيام الليل... هذه أمور كلُّها عبادات وجنسها الصَّلاة؛ لأنها ترجع إلى الصَّلاة، وسائر الذِّكر الأذكار المقيَّدة، والمطلقة كالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير؛ فإنَّ هذا من أعظم العبادات، قال رسول اللَّه ﷺ: «لَأَنْ أَقُولَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالحَمْدُ للَّه، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه، وَاللَّهُ أَكْبَر؛ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْس»[٢] فاعرفوا هذه الصَّلاة، واعرفوا فضلها، وتقرَّبوا بها إلى اللَّه خاشعين صادقين مخلصين كما قال ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ١١]

هذه الآيات أثنى فيها اللَّه على هؤلاء المؤمنين المتصفين بتلك الصفات ووعدهم بالفلاح كما أنَّ الصَّلاة إذا نودي إليها يقال: «حَيَّ عَلَى الصَّلاة، حَيَّ عَلَى الفَلَاح» أي: على النَّجاح والفوز العظيم؛ لأنَّ هذه الصَّلاة إذا أخلصنا فيها للَّه ﷻ ووحَّدنا اللَّه فيها محسنين أداءها كانت من أعظم أسباب الفلاح بعد توحيد اللَّه ﷻ.

كذلك الدُّعاء هو العبادة؛ كما جاء في الحديث[٣] والقرآن؛ كما في قوله ﷻ:

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح (٦/ ٧رقم٧٢٥ - نووي) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح (١٧/ ٣١رقم٢٦٩٥ - نووي) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) صحيح لغيره: ولفظه: «الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَة».
أخرجه عبد الرزاق في التفسير (٣/ ١٨٢) وابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ٢١رقم٢٩١٦٧) وأحمد في المسند (٤/ ٢٦٧، ٢٧١، ٢٧٦) والبخاري في الأدب المفرد (٢٤٩رقم٧١٤) وأبو داود في السنن (٢/ ١٦١رقم١٤٧٩) والترمذي في السنن (٥/ ٣٤٩، ٤٢٦ رقم٣٢٤٧، ٣٣٧٢) وابن ماجه في السنن (٤/ ٢٦٢رقم٣٨٢٨) والبزار في المسند (٨/ ٢٠٥رقم٣٢٤٣) والنسائي في السنن الكبرى (٦/ ٤٥٠رقم١١٤٦٤) وابن جرير الطبري في التفسير (١١/ ٧٣رقم٣٠٣٨٢ - ٣٠٣٨٤، ٣٠٣٨٧) وابن أبي حاتم في التفسير (٥/ ١٤٩٩رقم٨٥٩٠) و(١٠/ ٣٢٦٩رقم١٨٤٤٤) وابن حبان في الصحيح (٣/ ١٧٢رقم٨٩٠) والحاكم في المستدرك (١/ ٤٩٠، ٤٩١) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.
قال الترمذي: «حديث حسن صحيح». =

﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ١٤] وفي قوله ﷻ: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥] فتدعو الله -تبارك وتعالى- بصدق وجِدٍّ وإخلاص وثقة في الله ﷻ أنه يستجيب لك كما قال ﷻ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]؛ فالدُّعاء هو العبادة.

وإذا استعرضتَ الأعمال من الذِّكر والصَّلاة .. تجد أكثرها يقوم على الدُّعاء، وورد في بعض الأحاديث: «**الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ**»(١) واخْتَلَف العلماء في تصحيحه وتضعيفه؛ لكن الواقع كذلك؛ فالصَّلاة كم تجد فيها من الدُّعاء والذِّكر لله ﷻ؟ التشهد دعاء، الفاتحة فيها دعاء، في الرُّكوع دعاء، في السُّجود دعاء، بين السجدتين دعاء وهكذا....

= وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، ووافقهما الألباني في أحكام الجنائز (٢٤٦).

وقال الحافظ في فتح الباري (١/ ٤٩): «إسناده حسن».

(١) ضعيف:

أخرجه الترمذي في السنن (٥/ ٤٥٦رقم٣٣٧١) والطبراني في المعجم الأوسط (٣/ ٢٩٣رقم٣١٩٦) وفي الدعاء (٢/ ٧٨٩رقم٨) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

قال الترمذي: «هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة».

وقال الطبراني: «لم يرو هذا الحديث عن أبان إلا عبيد الله تفرد به ابن لهيعة».

وقال ناصر الدين الألباني في أحكام الجنائز (٢٤٧) في ابن لهيعة: «هو ضعيفٌ؛ لسوء حفظه، فيستشهد به إلا ما كان من رواية أحد العبادلة عنه، فيحتج به حينئذٍ، وليس هذا منها، لكن معناه صحيح بدليل حديث النعمان».

والحديث ضعفه المنذري في الترغيب بتصديره بـ«روي».

قال ابن عبد البر في الاستذكار (٣/ ٨٤): «الدعاء مخ العبادة لما فيه من الإخلاص والخضوع والضراعة والرجاء وذلك صريح الإيمان واليقين».

وقال ابن الأثير في النهاية في غريب الأثر (٤/ ٣٠٥): «الدعاء مخ العبادة: مخ الشيء خالصه، وإنما كان مخها لأمرين:

أحدهما: أنه امتثال أمر الله تعالى حيث قال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾؛ فهو محض العبادة وخالصها.

والثاني: أنه إذا رأى نجاح الأمور من الله قطع أمله عما سواه ودعاه لحاجته وحده وهذا هو أصل العبادة، ولأن الغرض من العبادة الثواب عليها وهو المطلوب بالدعاء».

فنتعلَّم الأدعية الشَّرعية الواردة في الكتاب والسُّنَّة وندعو اللَّه ﷻ بها في الصَّلاة وخارجها، ونخلص له الدُّعاء، ونخلص له سائر العبادات، وإخلاصها للَّه بألَّا نجعل له فيها شريكًا لا الشِّرك الأكبر ولا الشِّرك الأصغر بما فيه الرياء وما شاكل ذلك، بل نيَّةٌ خالصة كما قال ﷻ: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الزمر: ١١-١٢]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢ - ٣]، وقال ﷻ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

ومن أعظم ما وقع فيه كثيرٌ من المسلمين شرك الدُّعاء والذَّبح والنَّذر وهذه من صميم العبادات؛ فالتقرُّب إلى اللَّه بها تقرب بأعظم العبادات، والتقرُّب إلى غيره بها من أعظم وأكبر أنواع الشِّرك باللَّه ﷻ؛ ولهذا يُكَفِّر اللَّهُ ويُضَلِّل من يدعو غيره.

هذه الحقيقة ما عرفها كثيرٌ من ضُلَّال المسلمين من الرَّوافض وأصحاب الطُّرق الصوفية الذين يستغيثون بغير اللَّه في الشَّدائد، ويعتقدون في الأموات الذين لا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، يعتقدون فيهم أنهم يستجيبون الدَّعوات، ويكشفون الكُرُبات، ويعلمون الغيوب ويتصرَّفون في هذا الكون؛ فيقعون في أعظم أنواع الشِّرك في الألوهية والرُّبوبية - والعياذ باللَّه - ويزعم لهم الشيطان أنَّ هذا هو الدِّين! وهذا هو الإسلام! وأنَّ ما خالفه ولو كان في القرآن فهو الضَّلال!

تُقرَأ عليهم آيات التوحيد وآيات الإخلاص والآيات التي فيها أنَّه لا يعلم الغيب إلَّا اللَّه، وأنَّه لا يدبِّر ولا يصرِّف أمر هذا الكون إلا اللَّه، تلك الحقائق التي كان يعترف بها مشركو العرب كما أخبر اللَّه ﷻ عنهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]،

وقال ﷻ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

فهم يعترفون بأنَّ اللَّه هو خالق هذا الكون وسيِّده ومدبِّره ومنظمه، وأنَّ هذه الآلهة لا تملك شيئًا ولا تعلم الغيب، ولا تتصرَّف في الكون، ولا في شيء منه، وإنما يعبدونها

لأنها تقرِّبهم إلى اللَّه زلفى!! فهم يعترفون بأنَّ دعوتهم عبادة، وأنَّ الذَّبح لهم عبادة، وأنَّ الاستغاثة بهم عبادة...

ولكن هؤلاء الضُّلَال من المنتسبين للإسلام لا يعترفون بأنَّ هذه الأمور من العبادات؛ فهم أكثر مغالطةً من المشركين، وأكثر تلبيسًا على عوام المسلمين من المشركين الأولين؛ لأنَّ المشركين إذا وَاجَهْتَهُم بهذه العقائد يعترفون، أمَّا هؤلاء فيجعلون مع اللَّه شركاء في تدبير الكون من الأقطاب! والأوتاد! والغوث!...، يعقدون مؤتمرات شهرية أو سنوية ينظرون في أمر هذا الكون ويتصرَّفون فيه! وهم يسقطون الدُّول! ويولُّون الملوك! فهؤلاء إذن خونة، يولُّون اليهود والنَّصارى ويسلطونهم على المسلمين!!، هذا من الكذب على كلِّ حال.

ومن الكفر الأكبر أن تعتقد في مخلوق أنه يعلم الغيب ويدبِّر أمر هذا الكون، واللَّهِ إنَّ الملائكة والرُّسل وعلى رأسهم محمَّد -عَلَيْهِم الصَّلَاة وَالسَّلَام- لا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا، بل حارَبت الرُّسل من يعتقد هذه العقائد الخبيثة وكفَّرُوهم، وجاهدوهم أشدَّ الجهاد، والصِّراع بينهم وبين أعدائهم في هذه الأمور، بل في أقلِّ من هذه الأمور التي يفتعلها الرَّوافض وغلاة الصوفية على مختلف طرقهم.

إنَّ أولئك المشركين إذا سُئلوا من خلق السَّموات والأرض فإنهم يقولون: اللَّه؛ ولهذا تجد رسالات الرُّسل كلَّها إنما تناقش قضية العبادة لا تناقش قضايا الرُّبوبية؛ لأنهم مُسَلِّمُون بأنَّ اللَّه هو ربُّ هذا الكون وسيِّده وخالقه ومدبِّره ومُنظِّم شئونه ﷻ؛ فكان الخلاف بينهم وبين أممهم في قضيَّة التوحيد توحيد العبادة كما أخبر اللَّه ﷻ عنهم: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] ما قالت الرُّسل لأقوامهم: لا تقولوا لا خالق إلا اللَّه لا رازق إلا اللَّه لا مدبر إلا اللَّه إذ هم مقرُّون به ولم يخطر ببالهم غيره، وإنما دسَّ الزنادقة الملاحدة في صفوف الرَّوافض والصوفية هذه العقائد الخبيثة التي ما كان يعتقدها الوثنيون على امتداد التأريخ الإنساني - والعياذ باللَّه -، زنادقة اليهود والباطنية هم الذين شحنوا أذهان الصوفية وأغبياء الرَّوافض، شحنوهم بهذه العقائد الخبيثة، وقالوا: إنها هي أفضل ما جاء به الإسلام! قاتلهم اللَّه أنى يؤفكون!

الشاهد أنَّ قضايا الدُّعاء والذبح والنذر والاستغاثة من أعظم ما نُكِبَ به المسلمون، وكاد لهم أعداء اللَّه هذه المكائد، وزيَّنُوا لهم هذا الكفر وجعلوه من أعظم القُرُبات، ومن أعظم أسباب كشف الكروب والنَّجاة في الدنيا والآخرة، يقول قائلهم:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم

معناه أنه نسي اللَّه ﷻ!

فإنَّ من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

إن لم تكن في معادي آخذًا بيدي ... وإلا فقل: يا زلَّة القدم

نسي اللَّه -تبارك وتعالى- وأسند إلى رسول اللَّه ﷺ خصائص ربِّ العالمين.

فلا يُنجي من الكروب في الدُّنيا والآخرة إلَّا اللَّه، ولا يعلم الغيب إلَّا اللَّه، والرَّسول ﷺ لا يعلم الغيب ولا يدَّعي ذلك؛ فإذا شاء اللَّه أن يعلِّمه شيئًا من الغيب علَّمه إياه، وبلَّغه هذا الرَّسول ﷺ لأمته؛ فالجنَّة والنار والصِّراط والبعث غيوب؛ فإذا علمها المسلم هل يجوز له أن يدَّعي أنَّه يعلم الغيب؟! حاشى وكلَّا؛ ولهذا يقول اللَّه ﷻ لرسوله ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وقال ﷻ: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا﴾ [الجن: ٢١].

فقوله ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا﴾: هذا صدق أو ليس بصدق؟ نعم هو صدق والشك في صدقه كفر، فاللَّه ﷻ لقَّنه هذا، وهو في القرآن يقرؤه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، لماذا يقرءونه؟ ليعملوا ويعتقدوا بما تضمنه، أو أنَّ كلَّ واحد يتلاعب بدين اللَّه ويتديَّن كما يريد؟! هذه حقيقة لابدَّ من الإيمان بها، ولو كانت في شخص الرَّسول الكريم -عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَام- أكرمِ الخلق وأفضلِهم لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا؛ كما أخبر اللَّه ﷻ، ومن يقول غير هذا فقد عاند القرآن وكذَّب اللَّه ورسوله ﷺ ولو ادَّعى لنفسه ما ادَّعى فإنه مُكَذِّب معاند - نعوذ باللَّه من ذلك -.

وقوله ﷻ: ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ أي: لو كان

يعلم الغيب لاستكثر من الخير، ولدفع عن نفسه الشر، لكنَّه لا يعلم من الغيب -عليه الصَّلاة والسَّلام- إلَّا ما علَّمه اللَّه ﷻ كما قال ﷻ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٦ - ٢٨].

فهو ﷻ عالم الغيب، ويوحي إلى أنبيائه بهذه الرِّسالات، ويحفظها لهم، ويحميها من دسِّ الشياطين حتى يبلِّغوها، وهو وحده عالم الغيب، وهو الذي أحصى كلَّ شيءٍ عددًا، وليس للرُّسل ولا لغيرهم من ذلك شيءٌ؛ لأنَّ هذا من خصائص الرُّبوبية والألوهية ولا تتعدَّى إلى الرّسل ولا إلى الملائكة ولا إلى الصالحين ولا إلى أحد من الخلق، فخصائصه ﷻ هي التي استحق بها أن يكون سيِّد هذا الكون؛ فلزم أن يُخصَّ بالعبادة وحده ولا يُشرك به أحد في ذرَّة من هذه العبادة؛ فلنخلص للَّه العبادة ولنخلص للَّه الدُّعاء، ولنخلص للَّه النُّذور وسائر التقربات كما قال ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى﴾ يعني ذبحي ﴿وَمَحْيَاىَ﴾ حياتي كلّها ﴿وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ في شيء من ذلك من هذه المذكورات، كلّها للَّه وحده لا شريك له، لا من الملائكة ولا من الأنبياء - عليهم الصَّلَاةُ وَالسَّلَام -.

هذا الذي جاء به الأنبياء -عليهم الصَّلَاةُ وَالسَّلَام-، وجاء أعداءُ اللَّه من اليهود والنَّصارى والزنادقة والوثنيون بخلاف هذا، جاءوا بما يناقض ويصادم هذه الإخبارات الصَّادقة من ربِّ العالمين وهذه الحقائق العظيمة التي تتفطر السَّموات والأرض وتخر الجبال هدًّا من مناقضتها، فيدَّعون للَّه الولد ويدَّعون للَّه البنات؛ فيقول اللَّه ﷻ: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٩-٩٤].

فالنصارى يعبدون عيسى عليه السلام ويقولون هو ابن اللَّه، لماذا؟ ليبرِّروا عبادتهم لغير اللَّه ﷻ والذين يعبدون الملائكة يقولون: هم بنات اللَّه ليبرِّروا عبادتهم لغير اللَّه كذلك.

﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ واللَّهِ يهتز الكون ويضطرب من شدَّة وطء هذا الكفر وهذا الضَّلال وكل أنواع الشرك، لا يحتمله هذا الكون على عظمته من سموات وأرضين وجبال وبحار . . وكلٌّ من يعبد اللَّه بحق لا يحتمل هذا والملائكة وغيرها من مخلوقات للَّه ﷻ من المؤمنين، واللَّهِ لا يحتملون هذا ولا يطيقونه أبدًا.

قال اللَّه ﷻ ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]، هؤلاء أي المشركون أهانهم اللَّه وأذلهم اللَّه وأخزاهم - والعياذ باللَّه - ؛ ولهذا يقول اللَّه ﷻ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥]، فلو وقف النَّاس جميعًا أو واحد يدعو الأنبياء والملائكة ليل نهار واللَّه لا يسمعون نداءَه، ولا يملكون إجابته ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣-١٤]، الخبير اللَّه هو ﷻ وهو الذي أعلمنا أنَّ غيره لا يملك قطميرًا من هذا الكون، الكون هذا كلُّه ملك اللَّه؛ السَّموات والأرضين والجبال والبحار والملائكة والجن والإنس والحشرات والدواب كلُّها مملوكةٌ للَّه وحده لا شريك له، هو الذي انفرد بإيجادها، وانفرد برزقها، وهو الذي أمدَّها بالحياة، وهو الذي يحيي ويميت ﷻ، ولا يشركه أحد في ذَرَّة من كل هذه الأشياء، ولو كان من أفضل الخلق ما شركه في أتفه الأشياء.

هذا الكون العريض الواسع الذي لا يعلم مداه إلا اللَّه ﷻ واللَّهِ لا يشرَكه أحد في مثقال ذَرَّة ولا في فتيل ولا في قطمير . . . ، هذه الحقائق جاء بها القرآن الذي أوحاه اللَّه إلى محمد ﷺ؛ ليدين بها المؤمنون، وتستقرَّ هذه الحقائق في نفوسهم، لا يشكُّون في شيء من ذلك، بل يوقنون غاية اليقين بها، فاعرفوا هذا من القرآن وخذوه منه وبلِّغوه للنَّاس فقد قال رسول اللَّه: ﷺ **«لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»**[1].

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (٦/ ١٤٤رقم٣٠٠٩ - فتح) ومسلم في الصحيح (١٥/ ٢٥٣رقم٢٤٠٦ - نووي) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه .

واللَّهِ لقد جَنَت الفِرَق الضَّالة على الإسلام جنايةً لا نظير لها؛ ولهذا قال العلماء الفحول: «إنَّ أهل البدع أضر على الإسلام من اليهود والنَّصارى»[1]؛ لأنَّ اليهود والنصارى مكشوفون، لو جاء اليهودي ببعض الكلام الذي فيه الصِّدق أمكن ألا يُقبل منه؛ لكن هذا الدَّجال يأتيك بالطوام يأتيك بالكفر والشِّرك والضَّلال تصدِّقه؛ لأنَّه يأتيك بجبة وهيئة وعمامة، ويهلِّل ويسبِّح، ويعطيك السُّموم فتقبل منه السُّموم والبلايا والضَّلال!

ولهذا ترى هذه القبور منتشرةً في العالَم الإسلامي، فتُشَاد في بعض البلدان مدنٌ من القبور، فتُشَدُّ إليها الرِّحال وتُسَاق إليها الذبائح والنُّذور، وترى الأبقار والأغنام يسوقونها هناك، فهذا البدوي بمصر يجتمع إليه ملايين من النَّاس، ففي سنة من السَّنوات اجتمع عليه ثلاث ملايين! أكثر من اجتماع المسلمين في عرفات! هذا البدوي الذي يقولون عنه أنه كان من جواسيس الباطنية! جعلوه معبودًا يعبده كثير من أهل مصر وغيرهم، - أهل مصر فيهم موحِّدُون والحمد للَّه - ، يعبدونه، ويشدُّون إليه الرِّحال، ويقرِّبون له القرابين، وقل مثل ذلك في العرَّاق، وقل مثل ذلك في إيران، وقل مثل ذلك في باكستان، وقل مثل ذلك في السُّودان، والمغرب العربي والجزائر، وغيرها من البلدان، جاء بهذا أهل الضَّلال ولاسيما الصوفية الذين خدعوا المسلمين، وأوقعوا كثيرًا منهم في حبائل الشِّرك باللَّه -تبارك وتعالى- ، فإن قام أحدٌ يدعو إلى توحيد اللَّه الخالص حاربوه، ووصفوه بأنَّه عدوٌّ لرسول اللَّه -عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَام-! إذا قيل لهم:

---

(١) قال ابن الجوزي في (الموضوعات - ١/ ٥١): «قال أبو الوفاء علي بن عقيل الفقيه: قال شيخنا أبو الفضل الهمداني: «مبتدعة الإسلام، والوضَّاعون للأحاديث أشدُّ من الملحدين؛ لأنَّ الملحدين قصدوا إفساد الدين من الخارج، وهؤلاء قصدوا إفساده من الداخل؛ فهم كأهل بلد سعوا في إفساد أحواله، والملحدون كالمحاصرين من الخارج، فالدخلاء يفتحون الحصن؛ فهم شرٌّ على الإسلام من غير الملابسين له».
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في (الفتاوى (٢٨ / ٢٣١ - ٢٣٢): «إذ تطهير سبيل اللَّه ودينه ومنهاجه وشرعته ودفع بغي هؤلاء - أئمة البدع من أهل المقالات المخالفة للكتاب والسنة، أو العبارات المخالفة للكتاب والسنة - وعدوانهم على ذلك واجب على الكفاية باتفاق المسلمين، ولولا من يقيمه اللَّه لدفع ضرر هؤلاء لفسد الدين، وكان فساده أعظم من فساد استيلاء العدو من أهل الحرب، فإن هؤلاء إذا استولوا لم يفسدوا القلوب وما فيها من الدين إلا تبعًا، وأما أولئك فهم يفسدون القلوب ابتداءً».

لا تَدْعُوا الأنبياء ولا الأولياء، يقولون: هذا عَدو الأنبياء والأولياء! - قاتلهم اللَّه أنى يؤفكون - ؛ فاعرفوا مكائِدَهم وحاولوا إنقاذ النَّاس من براثنهم كما قال رسول اللَّه ﷺ: «لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَم»[1].

والذين يشغلون النَّاس بادئ ذي بدءٍ بالسِّياسة فقط هؤلاء ضُلَّال، وكثيرٌ منهم قبوريون، وكثيرٌ منهم روافض، وكثير منهم علمانيون لا يسلكون مسالك الأنبياء في إصلاح الناس، فإنَّ الأنبياء -عَلَيهِم الصَّلَاة وَالسَّلَام- بدءوا بإصلاح العقائد أولًا، التوحيدُ أولًا قبل كلِّ شيء، وهذا القرآن أكبر شاهد على ذلك.

وصلَّى اللَّه على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

* * *

(١) سبق تخريجه (ص٨٥).

لمحة عن التوحيد

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمدَ للَّه نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسنا ومن سيِّئاتِ أعمالنا، من يهدِهِ اللَّهُ فلا مُضِلَّ له، ومن يُضْلِلْ فلا هادي له، وأشهد أن لا إلهَ إلَّا اللَّهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمّدًا عبدُه ورسولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠- ٧١].

أمَّا بعد: فإنَّ أصدقَ الحديثِ كلامُ اللَّه، وخيرَ الهدي هديُ محمَّدٍ ﷺ، وشرَّ الأمورِ محدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النَّار.

أيُّها الحضور الكرام من الإخوة والأبناء! مرحبًا بكم في هذا اللقاء الطيب المبارك في أقدس البقاع في مكة المكرمة في منى، حيث تُؤَدُّون مناسك الحج وتحترمون مشاعره وشعائره، اجتمعتم لإعلاء كلمة اللَّه كلمة توحيد اللَّه ﷻ إظهار شعار التوحيد؛ فمنذ يُلبِّي المسلم بأيِّ نُسُك من الأنساك يرفع عقيرته بالتوحيد: «**لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالمُلْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ**»[1].

هذه التلبية سمَّاها جابر بن عبد اللَّه ﷺ بالتوحيد؛ لأنها فعلًا توحيد اللَّه، وإخلاص الدِّين للَّه، وأداء لركنٍ من أركان الإسلام وهو الحج الذي يتخلل كلَّ شعيرة وشريعة منه توحيدُ اللَّه -تبارك وتعالى-، وأركان الإسلام قائمةٌ على التوحيد، وأركان

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر ﷺ (خ/ ١٥٤٩) ك/ الحج، باب التلبية، (م/ ١١٨٤) ك/ الحج، باب التلبية وصفتها ووقتها.
وأخرجه مسلم من حديث جابر ﷺ (١٢١٨) ك/ الحج، باب حجة النَّبي ﷺ.

الإيمان قائمةٌ على التوحيد، والقرآن كلُّه يدور على التوحيد، ويجب على الأمَّة كلِّها أن تكون أمَّةَ توحيد، لو تدبَّرت الأمَّة التوحيد في كلِّ قضية من قضايا دين اللَّه ﷻ لما وقع كثير منهم فيما وقعوا فيه من مخالفة التوحيد.

تأمَّلوا هذه التلبية التي سماها جابر ﷺ بالتوحيد؛ فمعنى «**لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ**»: استجابةً لك بعد استجابة، أو إقامةً على الحقِّ بعد إقامة، يعني أنَّ الاستجابة لأمر اللَّه دائمة وثابتة ومستمرة، أو إذا قلنا: الإقامة؛ هذه الإقامة لا تتزلزل ولا تتغير، هذا الذي يجب أن يستشعره المسلم حينما يقول: «**لبيك اللَّهم لبيك**»، لا يرِّدد كلمات لا يعرف ما تدل عليه، هذا معنى «**لبيك اللَّهم لبيك**»، استجابةً لك بعد استجابة، أو إقامةً على طاعتك بعد إقامة، معناه إني مستجيب لك دائمًا ومقيم على طاعتك دائمًا؛ فكأنَّنا معشر المسلمين نقطع عهدًا مع اللَّه -تبارك وتعالى- حينما نرفع عقيرتنا بهذه الشعيرة العظيمة - شعيرة التوحيد - ، إنَّنا نقطع عهدًا مع اللَّه بالثبات على دين التوحيد والاستجابة الدائمة لهذا التوحيد، ونؤكد ذلك بقولنا «**لا شريك لك**»، لا شريك لك؛ لا في ذاته وأسمائه وصفاته ولا في أفعاله ولا في عبادته ﷻ.

ونُقدِّسه عن الأنداد وعن الشُّركاء وعن النُّظراء وعن الأكفاء ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤]، وهذه السُّورة تُسَمَّى بسورة الإخلاص، لأنها أُخلصت لتوحيد اللَّه ﷻ والإشادة بعظمته وجلاله وتمجيده وتنزيهه تعالى عن الشُّركاء والنُّظراء، ويجب أن نفهم معنى هذه السُّورة حقَّ الفهم ونفهم نظيرتها سورة التوحيد الأخرى، توحيد العبادة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١- ٦] السُّورة الأولى على قِصَرها تعدل ثُلُثَ القرآن لماذا؟ لأنَّ القرآن ثلاثة أقسام:

القسم الأول: التوحيد وهو لُبُّ القرآن ولُبُّ الإسلام وعليه مدار توحيد اللَّه -تبارك وتعالى- ؛ فهذه السُّورة لَمَّا تضمنت هذا التوحيد - لفضل التوحيد - عدَّها رسول اللَّه ﷺ معادلةً لثُلث القرآن.

فالقرآن ثلثه توحيد، وثلثه وعد ووعيد وقَصَص وأخبار، وثلث أحكامٌ وتشريعات، هذه مقاصد القرآن ومحاوره التي يدور عليها، أقول هذا الكلام ويجب أن يكثر الكلام ويكثر الكلام في هذا الموضوع الأساسي العظيم الذي يجهل قيمتَه كثير من المنتسبين إلى الإسلام من مختلف الطَّوائف والفِرَق، وقلَّ من يعرف أنَّ القرآن كلَّه كتابُ توحيد وهو حق.

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ ما معناه: إنَّ القرآن كتابُ توحيد، القرآن كلُّه توحيد كيف هذا؟ قال: لأنَّ القرآن إمَّا خبرٌ عن اللَّه وأسمائه وصفاته وهذا هو التوحيد العلمي الخبري، وإمَّا دعوة إلى نبذ الشِّرك والأوثان وهذه دعوة إلى إخلاص الدِّين له وعبادته وحده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإمَّا دعوة إلى إكمال هذا الدِّين بالعبادات والتشريعات، وإمَّا بيان لحال أهل التوحيد في الدُّنيا وجزائهم في الآخرة، وإمَّا بيان لحال الكافرين بهذا التوحيد والمشركين وبيان جزائهم في الآخرة؛ حيث تركوا التوحيد، إذن القرآن كلُّه يدور على التوحيد كما فصَّل هذا الإمام هذا التفصيل بحق وبوعي.

أقول هذا ليعرف المسلمون مكانة التوحيد والذي يُرَدَّد على المآذن كلَّ يوم كرَّات ومرَّات، ومع ذلك تجد القبور تُشَاد وأنَّ الأولياء يُتَّخذون مع اللَّه أندادًا، وإلى آخر الأفاعيل السَّيئة والانحرافات الخطيرة التي توجد في كثير من المنتسبين إلى الإسلام، وهم مع الأسف الشديد لا يعرفون حتى معنى الأذان الذي يُرَدَّدُ على أعلى المنارات كلَّ يوم خمسَ مرَّات، هذا تَرْدَادٌ للتوحيد لتَظَلَّ الأُمَّة مرتبطة بالعقيدة الصحيحة عقيدة التوحيد «اللَّه أكبر اللَّه أكبر، أشهد أن لا إله إلا اللَّه . . . ، أشهد أن محمدا رسول اللَّه . .»، الأذان كلُّه توحيد، كيف يُرَدَّد بين ظهراني المسلمين كلَّ يومٍ كرَّات ومرَّات ويقعون فيما يخالف التوحيد؟ ماهو السِّر أيُّها الإخوة في هذا؟

السِّر: أنَّ علماءَ السُّوء من علماء الكلام الذين تَلَقَّوا عقائدهم ومناهجهم من غير القرآن والسُنة وتَلَقَّوها عن المجوس، وعن اليونان الملاحدة، وعن النَّصارى والهنادك وغيرهم، فَسَّروا «لا إله إلا اللَّه»، كلمة التوحيد فسَّروها تفسيرًا ضالًّا ابتعد بكثير من الأُمَّة عن معرفة توحيد اللَّه، وعمَّا تدل عليه هذه الكلمة العظيمة؛ هذه الكلمة مدلولها الصحيح مدلولها الحقيقي: لا معبود بحق إلا اللَّه؛ فجاء هؤلاء الضَّالون وقالوا: معنى

«لا إله إلا اللَّه» لا خالق ولا رازق ولا محيي ولا مميت ولا مدبر إلا اللَّه؛ فضَلُّوا وأضَلُّوا، ضَلُّوا في فهم معنى «لا إله إلا اللَّه»؛ ففسَّروها تفسيرًا خاطئًا وأضَلوا النَّاس حيث تابعوهم في هذا التفسير.

فاللَّه -تبارك وتعالى- هو الخالق والرَّازق والمدبِّر؛ ولكن «لا إله إلا اللَّه» ليس معناها لا خالق لا رازق لا مدبِّر. . . ، معناها: لا معبود بحق إلا اللَّه، العبادات جميعُها للَّه وحده لا يستحق أحدٌ منها ذَرَّة واحدة لا الأنبياء والمُرسَلون ولا الملائكة المقرَّبون ولا عباد اللَّه الصَّالحون؛ كلُّهم عباد اللَّه كلُّهم أذلاء أمام عظمة اللَّه كلُّهم خاضعون للَّه؛ لأنَّ اللَّه خلقهم لعبادته وقَهَرَهم بقدرته وألزمهم بدينه؛ فلا إله إلا اللَّه كما قلنا معناها: لا معبود بحقٍّ إلا اللَّه.

وجنى من ذكرناهم سلفًا على الإسلام والمسلمين جنايةً عظيمة؛ إذ حرَّفوا تفسير هذه الكلمة إلى أمور لا يريدها اللَّه بهذه الكلمة، تلك الأمور التي فُسِّرت بها هذه الكلمة دلائلها كثيرة جدًّا في القرآن، دلائل أنَّ اللَّه هو الخالق موجودة في القرآن، وأنَّ اللَّه هو الرَّازق وأنَّه هو الذي يحيي ويميت إلى آخر الأمور التي فسَّروا بها «لا إله إلا اللَّه» لها نصوصها الخاصَّة من كتاب اللَّه ومن سنة رسول اللَّه -عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَام، - أمَّا «لا إله إلا اللَّه»؛ فلا تعني إلا أنَّ على العباد أن يُفردوه بالألوهية ويُفردوه بالعبادة وينفوا عنه كلَّ الشُّركاء والأنداد، لا إله إلَّا اللَّه، لا معبود بحق إلا اللَّه، إذا جعل الناس من الأشجار ومن الأحجار ومن الأنبياء ومن الملائكة وعزير وعيسى جعلوهم أندادًا للَّه، وعبدوا الشَّمس والقمر والنبات والشَّجر وكثيرًا من الحيوانات ومن الأحجار والأصنام وإلى آخره، فجاءت هذه الكلمة تنفي عن غير اللَّه الألوهية؛ إذ لا يستحق شيء منها ذَرَّة من هذه العبادة، وهذا التأله لا يستحق أحد منه شيئًا.

والعبادة التي تضمنتها «لا إله إلا اللَّه»؛ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ «هي اسمٌ جامع لكل ما يحبه اللَّه ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة»[1]؛ فهذا تعريف جامع لكلِّ أصناف العبادات التي نتقرب بها إلى اللَّه ﷻ من الأقوال التي نَنطِقُ

(١) رسالة (العبودية / ص ١).

بها، والأفعال التي نتحرك بها، والعقائد الظاهرة والباطنة ما نُكنُّه وما نعلنه من خوف ورجاء ومحبة ورغبة ورهبة، هذه العبادات القلبية، إلى جانب العبادات القولية، إلى جانب العبادات المتعلقة بالجوارح هذه هي العبادة كلُّها للَّه.

وعلى المسلمين جميعًا أن يتعبَّدوا اللَّه بأقوالهم وأفعالهم وحركاتهم وخلجات نفوسهم، أن يتجهوا بها إلى اللَّه وحده ﷻ ولا يصرفوا لغيره ذَرَّة من هذا التوحيد ومن هذه العبادة؛ لأنَّ المخلوقات كلُّها خُلِقَت لعبادة اللَّه ﷻ والكون كلُّه خاضع للَّه، والأحياء التي فيه من الملائكة والبشر والجن والإنس كلُّهم خُلِقوا لعبادة اللَّه، ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

ويقول تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٥]؛ فهذا نقد شديد للذين اتخذوا مع اللَّه أندادًا، ونسبوا إليه الأولاد من النَّصارى والهنادك ومشركي العرب وغيرهم، ممن ينسب إلى اللَّه الأولاد والبنات ويجعلونهم أندادًا للَّه -تبارك وتعالى- أنَّبهم اللَّه ووبخهم أشدَّ التوبيخ، وبَيَّن خطورة ما ارتكبوه من جرائم عظيمة جدًّا يتزلزل منها الكون ويضطرب وتكاد الجبال أن تخرَّ منه هدًّا؛ لأنهم تنقَّصوا اللَّه -تبارك وتعالى- أشدَّ التنقص وهو ربُّ هذا الكون وسيِّد هذا الكون؛ فهذا القول الخطير أمرٌ إدٌّ وخطيرٌ وكبيرٌ جدًّا جدًّا أن يقال مع اللَّه أنداد وللَّه أولاد ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾.

أَدْرِكُوا يا إخوة مكانة التوحيد عند اللَّه -تبارك وتعالى-، هذا الكون يكاد يضطرب، ويكاد ينتهي لشناعة وبشاعة ما ارتكبه البشر من إساءات إلى اللَّه -تبارك وتعالى-؛ حيث يعتقدون أنَّ عزيرًا ابن اللَّه ويعتقدون أنَّ عيسى ابن اللَّه هذه عقيدة النَّصارى واليهود ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠] تعالى اللَّه عن ذلك علوًّا كبيرًا.

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۖ﴾ [المائدة: ١٧].

كلُّ هذا كفر عظيم يزلزل هذا الكون، ثم بَيَّن اللَّه حال هؤلاء الذين يدَّعي هؤلاء الضَّالون أنهم أبناء اللَّه هم وغيرهم ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدٗا﴾ عبدًا ذليلًا خاضعًا إذْ أوجده اللَّه -تبارك وتعالى- من نُطفة أو من العدم، وكوَّنه، وربَّاه، وشقَّ سمعه وبصره، وأنطق لسانه، وإذا كان نبيًّا اختاره للدَّعوة إلى توحيده وإخلاص الدِّين له وسوف يبعثه اللَّه يوم القيامة مع النَّاس جميعًا ويأتيه كلُّ واحد فردًا، فلو كان يملك الأرض كلَّها سوف يأتي بغير خَدَم، وبغير حَشَم، وبغير أبناء، وبغير مال، ومجرَّدًا من السُّلطات، ومن كلِّ شيء، يأتيه فقيرًا ذليلًا خاضعًا للَّه. فإن كان له عمل صالح أثابه اللَّه ﷻ على دينه الصحيح وعمله الصالح يدخله الجنة بفضله ورحمته ﷻ وإن كان عاصيًا أو كافرًا جازاه اللَّه - والعياذ باللَّه - الجزاء الذي يستحقه، إن كان كافرًا خَلَّده اللَّه في النار.

فيقول ﷻ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ۝٢٧ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ۝٢٩ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٖ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسْلُكُوهُ ۝٣٢ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۝٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣٤ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٖ﴾ [الحاقة: ٢٥ - ٣٦].

هؤلاء الجبابرة المتكبرون ذوو السُّلطان والملك العريض إن لم يخضعوا للَّه ويعبدوه ويحققوا الغاية التي خلقهم من أجلها سيأتيه كلُّ واحد منهم فردًا مجرَّدًا من كلِّ شيء، من المال والسُّلطان والجاه والقريب والبعيد، ويأتيه حافيًا عاريًا كيوم ولدته أُمُّه، ويكون مصيره بعد ذلك إلى النار.

يا إخوة يجب أن نتدبر القرآن الكريم وندرك عظمة اللَّه وجلاله، وضآلة هذا الكون أمام عظمته وجلاله ﷻ وتضاؤل كلِّ العظمات، والجبروت والطُّغيان يتضاءل أمام عظمة اللَّه ﷻ هو اللَّه الواحد القهار ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٞۖ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ

لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦]، فيجب أن نتصور هذه العظمة حتى نهاب اللَّه ﷻ وحتى نخشاه، وحتى نتقي محارمه، وعلى رأسها الشِّرك أكبر الكبائر وأعظم الجرائم والذَّنْب الذي لا يُغْفَر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء:١١٦].

﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣١].

واللَّه لو أشرك العبدُ بمحمَّد ﷺ واتخذه ندًّا مع اللَّه يدعوه ويرجوه ويستغيث به في الشدائد واللَّه لعذَّبه اللَّه هذا العذاب الذي توعَّد به المشركين الذين أُرسِلَ إليهم محمَّد ﷺ ألا تعبدوا ولا تتوجهوا لا للَّات ولا للعُزَّى ولا لمناة ولا للشمس ولا للقمر، فقالوا: لا واستكبروا!

إذن أدركنا أنَّ الشِّرك الذي حصل في الأمم وخاصموا فيه الأنبياء إنما هو فقط توحيد الألوهية مضمون هذه الكلمة مضمون «لا إله إلا اللَّه»؛ فالصراع والخصام والقتال والجهاد كلُّ ذلك من أجل هذه الكلمة العظيمة التي جَهِلَ منزلتها كثيرٌ من المسلمين، هذه الكلمة التي قال في شأنها رسولُ اللَّه - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَام - : «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه وَأَنِّي رَسُولُ اللَّه؛ فَإِذَا قَالُوهَا فَقَدْ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا**»[1].

هذه الكلمة التي بُعِثَ بها جميع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وشُرِعَ من أجلها الجهاد ماذا تلقى الآن من كثير من المسلمين؟! ماذا تلقى من التَّنَكُّر؟ وماذا يلقى أهلها من العَنَت من خصوم التوحيد؟ أمرٌ عظيم أمر عظيم! مع أنَّ دلائلها في القرآن لا تُحصى ولا تُعَدّ، بيان بطلان اتخاذ أنداد مع اللَّه في الدُّعاء أو غيره، كما قال -تبارك وتعالى-: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة ﷺ. (خ / ١٣٩٩) ك / الزكاة. باب وجوب الزكاة، (م / ٢٠/ ١٢٤) ك / الإيمان. باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه. . . ، وانظر لزيادة الفائدة حول هذا الحديث (صحيح الجامع/ ١٣٧٠) و(السلسلة الصحيحة / ٤٠٧).

تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣-١٤].

آيات كثيرة جاءت بمعنى هذه الآية ولم يفقهها كثير؛ من مدارس جامعية لا تفقه معنى «لا إله إلا الله»؛كما فقهها الأنبياء وكما فقهها خيار هذه الأُمَّة من الصَّحابة والتابعين ومن سار على نهجهم إلى يومنا هذا، لا يفهمونها هذا الفهم، وإنما ساروا فيها على طريقة المتكلمين التي ذكرناها لكم؛ ولهذا يَدْعون غير الله ويجيزون الدُّعاء لغير الله ويؤلفون في ذلك المؤلفات، ويكتبون في ذلك المجلدات لنصرة الشِّرك والضَّلال! ومحاربة التوحيد! وللدَّعوة إلى أن أولياء الله يعلمون الغيب ويتصرفون في الكون! . . . وقد كذَّبوا بهذه الآيات من سورة فاطر ونظيراتها من السُّوَر الأخرى؛ إذا كان الله ﷻ يقول: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ والذين يُدْعَوْن من دون الله فيهم الأنبياء وفيهم الصُلحاء وفيهم الملائكة، - ووالله - ما يملكون من هذا الكون قطميرًا، والقطمير: هو اللُّفافة الرقيقة التي تحيط بالنَّواة، لا قيمة لها ولا وزن، كلُّ من في السَّموات والأرض: أنبياء وملائكة معبودون وغيرهم لا يملكون من هذا الكون قطميرًا ولا ذَرَّة ولا أدنى أدنى من مثقال ذَرَّة؛ إذ هم عباد لله مملوكون لله ربِّ العالمين لا يملكون شيئًا.

ومن هذا حاله كيف يُدعى؟! كيف يُستغاثُ به؟! كيف يُستنجد به؟ !كيف يُنسَى الله -تبارك وتعالى-، ويُتَّجه إلى هؤلاء وهم هذا حالهم؟! ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾، ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾، هل الذي يدعو غير الله آمَن بهذه الآية وأمثالها؟ هل عرفها وآمن بها واعتقد مضمونها؟ مع الأسف قلبه خالٍ وخاوٍ من هذه المعاني العظيمة التي دلَّت عليها هذه الآية مع الأسف الشديد، مع الأسف الشديد! هذه البدهيات يجهلها كثير من الناس مع الأسف! ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ يقول - هؤلاء النَّاس - : واللهِ هم يسمعون، قد ينادي الرَّسول ﷺ، وقد ينادي عبد القادر، وقد ينادي غيرَه من الأولياء والصَّالحين، وبين المنادي والمنادى آلاف الأميال؛ فيجعله ندًّا لله في الربوبية! يجعله علَّامًا للغيوب! وكشَّافًا للكروب! وغفارًا للذنوب! مع الأسف الشديد!، فأيُّ منادَّة لله تفوق هذا البلاء الذي يقع فيه أمثال هؤلاء؛ حتى إنَّ بعضهم

يزعم لنفسه أنه اللَّه، من هؤلاء الزنادقة والملاحدة الذين ضلُّوا وأضلُّوا أجيالًا من المنتسبين للإسلام.

وكنت عين وجود القدس في أزل يسبح الكون تسبيحًا لإجلالي
فالعرش والفرش والأكوان أجمعها الكل في سعتي مُسْتَهْلَكٌ بالي
وكل فضل سما للكون مرتفعًا فإنما هو من مَنِّي وإفضالي[1]

هذا يقوله رجل يعتقد فيه النَّاس أنَّه من أولياء اللَّه، وأنَّه نال هذه المرتبة التي ادَّعاها.

وكنت عين وجود القدس في أزل: معناه كنت اللَّه في الأزل، أنا اللَّه!!

يسبح الكون تسبيحًا لإجلالي: الكون كلُّه يُسَبِّح لهذا الرجل عرفتم؟ أيُّ زندقة تفوق هذه؟ هذه ما قالها اليهود ولا النَّصارى!

وكل فضل سما للكون مرتفعًا فإنما هو من مَنِّي وإفضالي

وهذا في كتب تُطبع وتُنشر وتُحفظ وتُردد أناشيد!، يتغنى بها ناس يُسمُّون أنفسهم مسلمين!

ولها نظائر في قصائد هؤلاء الدَّجاجلة الزنادقة، لها نظائر كثيرة ولها مؤلفات كثيرة ولها جماعات ولها حُماة ولها دُعاة ولها مدارس، لها مدارس هنا وهناك، كثيرًا ما تجد في عقائد الرَّوافض والصُّوفية من أمثال هذا الهُراء وهذا الضَّلال وهذا الذي تتقاصر عنه عبارة شرك! كلمة شرك لا تفي بهذا الضَّلال وهذا الإلحاد وهذه الزندقة! أمر خطير جدًّا، ثم يعيش هؤلاء في أوساط المسلمين بأنهم هم المسلمون حقًّا! ومن ينكر عليهم هذا الإلحاد وهذه الزندقة هو الملحد وهو الزِّنديق، هو الوهابي الضَّال! - ونسأل اللَّه العافية - وتقوم دعوات هنا وهناك تَرَبَّت على أكتاف هؤلاء وتقول عنهم أنتم المسلمون! وأنتم سادتنا! وأنتم قادتنا!

لا نعرف منكرًا أكبر من هذا المنكر ولا إلحادًا يفوق هذا الإلحاد، يجب أن يُحَارَب،

---

(١) قائل هذه الأبيات الشركية هو الحسن الميرغني أحد زعماء الطرق في السُّودان.

يجب على المسلمين أن يُشَمِّروا عن ساعد الجِّد في طلب العلم، ويفهموا القرآن كما فهمه الرَّسول ﷺ وفهمه الصَّحابة الكرام والسَّلف الصالح، وتتظافر الجهود هنا وهناك في مشارق الأرض ومغاربها بين طُلَّاب العلم في إزالة هذا الباطل من أذهان المسلمين ومن بقاع المسلمين ومن حياة المسلمين.

الدَّعوات اشتغلت بما يؤكد هذه الضَّلالات والتُرَّهات من التصوف والخرافات والأساطير! أو اشتغلت بالسِّياسة، السِّياسة التي تؤدي بأهلها إلى وحدة الأديان والمصالحات مع كلِّ المِلل والنِّحل؛ بدءًا من هذا الإلحاد الصُّوفي الرَّافضي وينتهي بأُخَوَّة الأديان الأخرى! هذا مآل الدَّعوات السِّياسية الآن وتُسَمَّى الآن بحوار الأديان! وعُقِدت مؤتمرات لوحدة الأديان باسم الإسلام.

ووالله إنها لكوارث ونكبات تتوالى على الأُمَّة، تنبع هذه الكوارث من داخل هذه الأُمَّة لا من خارجها! وكلُّ ما نزل بالأُمَّة من ذلٍّ وهوان فإنما هو لجهلهم بالتوحيد أو تجاهله وإدارة الظهور له إلا من حفظ الله ووفقه وسَدَّده فعَضَّ على توحيد الله ومنهج رسول الله ﷺ بالنَّواجذ.

وفي هذه المناسبة التي يلتقي فيها الإخوان من مشارق الأرض ومغاربها يجب أن يُدركوا أهميَّة التوحيد، وأنَّ النَّكبات التي حاقت بالمسلمين نبعت من داخل المسلمين على أيدي قادة، ممن انساق إليهم من السَّابق واللَّاحق.

هذه الأدواء وهذه النَّكبات نزلت بالأُمَّة من وقت مُبكِّر، وعالجها الدُّعاة والمخلصون، وبذلوا جهودًا جَبَّارة لتخليص الأُمَّة منها؛ ولكن هؤلاء يُشَكِّلون عقبات في وجه أهل الحق؛ فيثيرون زوابع الفتن في وجوه الدُّعاة والمصلحين، ويكيلون لهم الاتهامات، ويُصِرُّون على بقاء الأُمَّة على هذه الضَّلالات والدَّوران في هذه المتاهات المُهلكة.

فعلى شباب الأُمَّة أن يدرك خطورة الشِّرك والبدع والضَّلالات، وأن يُدرِك منزلة التوحيد الذي بعث الله به جميع الرُّسل، وشَرَع من أجله الجهاد حتى لا تكون في الأرض فتنة، وشَمَّر الصَّحابة الذين فَقِهوا دين الله وفَقِهوا هذا القرآن وعرفوا هذه

الرِّسالة التي جاء بها جميع الأنبياء وجاء بها خاتمهم ﷺ؛ فانطلقوا في الأرض ينشرون هذه الرِّسالة يضيئون بها الدُّنيا ويبدِّدون بها ظلمات الشِّرك والكفر والإلحاد، ورفع اللَّه راية التوحيد ومنارات الإسلام وأباد منها الشِّرك والباطل والضَّلال فمُحِيَ من أكثر أقطار الأرض، ولا ينتظر الإسلام من المسلمين إلَّا رجالًا يفهمون هذه الرِّسالة فيعيدون الكَرَّة في فهم هذا التوحيد، وتربية المسلمين عليه، وفهم هذا المنهج الذي جاء به الأنبياء وتربية الأُمَّة عليه، وغسل عقول الأُمَّة من أدران وأوضار الخرافات والشِّركيات والبدع حتى تكون أُمَّة توحيد بحق وجدارة، وحينئذٍ يستحقون من اللَّه الكرامة في الدُّنيا والآخرة ويَصدُق عليهم أنهم أُمَّة التوحيد؛ فيستحقون منه النَّصر والتأييد، ويستحقون منه الإكرام والإعزاز.

ولكن الأماني لا تنفعكم يا معشر المسلمين، والاتكال والتواكل لن يغني عنكم شيئا أبدًا حتى تؤمنوا باللَّه وحده، تؤمنون بتوحيد اللَّه الخالص، وتجمعون الأُمَّة عليه، فإذا قلنا لا إله إلا اللَّه قلناها بوعي ومن قلوب مؤمنة، ومن شفاه وألْسِنَةٍ طاهرة لم تتلوث بأدناس الشِّرك والبدع والخرافات.

وأسأل اللَّه -تبارك وتعالى- أن يُهَيِّئَ الأُمَّة لهذا اليوم الذي يتطلع إليه كلُّ مسلم، فتجتمع كلمة المسلمين على لا إله إلا اللَّه وعلى هذا القرآن وعلى هذه السُنَّة التي يبذل من أخلص للَّه ونصح لدين اللَّه ولهذه الأُمَّة يبذلون جهودًا لتحقيق هذه الغاية، ولا يزالون يبذلون، ونسأل اللَّه أن يأتي به؛ لتعلو هذه الأُمَّة إلى الصعيد والمستوى الذي ارتقى إليه أسلافهم.

أما الآن بسبب هذه الخرافات والتُرَّهات فواللَّه لقد ديست كرامة المسلمين، وداسها أذلُّ الأمم وأحطُّهم، فأين غيرة المسلمين على أنفسهم؟! وأين غيرتهم على عقيدتهم؟! وأين غيرتهم على قرآنهم؟! ولقد بلغنا أنَّ في بعض البلدان مُزِّقَ القرآن وقُطِّعَ المصحف لماذا؟ لأنَّ الأوثان في بعض البلدان قد هُدِّمَت! وهذه خطوة طيِّبة من ذلك البلد الذي قام بهذا الأمر العظيم؛ فإنَّ رسول اللَّه ﷺ كان يبعث السَّرايا والجيوش لهدم الأوثان والأصنام والقبور.

وإنَّنا لنأمل من ذلك الشعب الذي خطا هذه الخطوة التي زلزلت أقدام الكفار والوثنيين أن يخطو خطوة أخرى؛ لهدم القبور التي اتُّخِذَت مع اللَّه أندادًا؛ فقد كان رسول اللَّه ﷺ يبعث لهدم القبور ويبعث لهدم الأوثان؛ فكما نفذوا خطة رسول اللَّه ﷺ في هدم الأوثان واستئصال شأفتها فليستأصلوا أخواتها من المشاهد والأضرحة؛ فإنَّ القبور هي قرينة الأوثان إذْ ما ضَلَّ الناس إلا بحب أهل القبور، ونشأت الوثنية عن هذا الحب الغالي في أهل القبور - فنسأل اللَّه -تبارك وتعالى- أن يوفق ذاك البلد ليأخذ بالإسلام كاملًا عقيدة وشريعة، وعلى رأس ذلك التوحيد.

ولقد بلغني مع الأسف أنَّ بعض أدعياء العلم وأدعياء الإسلام قد غاظه هذا التصرُّف فذهب ينقم وينتقد من قام بهدم الأوثان، وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل على الجهل المطبق بهذه الرِّسالة العظيمة التي من أعظم غاياتها وأهدافها محو الأوثان من الوجود فهؤلاء المعترضون على هذا العمل الشرعي إمَّا جهلاء لم يعرفوا ماذا صنع محمد ﷺ وماذا صنع الأنبياء -عليهم الصَّلَاة والسَّلام- بهذه الأوثان.

ألم يذهب إبراهيم -عليه الصَّلَاة والسَّلام- يُحَطِّم الأوثان -صلوات اللَّه وسلامه عليه- حتى تركها جذاذًا؟ ألم يهدم محمد ﷺ الأوثان ثلاثمائة وثن أحاطت بالبيت في لحظات؟!

ألم يبعث محمدٌ ﷺ جيشًا مُكَوَّنًا من مائة وخمسين فارسًا من المدينة إلى أوساط زهران الآن إلى ذي الخلصة قال: «**مَنْ يُرِيحُني مِنْ ذِي الخَلَصَة؟!**»[1]؛ إذْ كان وجود ذي الخلصة ولو على أبعد مسافة عن هذا الرسول الكريم ﷺ كان يَقُضُّ مضجعه فلا يستريح، «**مَنْ يُرِيحُني مِنْ ذِي الخَلَصَة**»؛ فانْبَرَى جرير بن عبد اللَّه البجلي ﷺ وهو من تلك المنطقة في خمسين ومائة من أحمَس وذهبوا لذي الخلصة فأحرقوه ودَمَّروه.

الرَّسول ﷺ ما استراح لوجود وثن واحد، كيف لو رأى آلاف الأوثان والمقابر تعبد في بلاد المسلمين؟! كيف يستريح هذا الرسول الكريم ﷺ وهو القائل: «**لَعْنَةُ اللَّه عَلَى**

(١) متفق عليه من حديث جرير بن عبد اللَّه البجلي ﷺ (خ/ ٤٣٥٥) ك/ المغازي.، باب غزوة ذي الخلصة و (م/ ٢٤٧٦/ ٦٣١٥) ك/ فضائل الصحابة، باب من فضائل جرير بن عبد اللَّه ﷺ.

اليَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِد»[1]، يقول هذا الكلام ويُرَدِّده في آخر لحظات حياته -عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَام- وهو يُوَدِّع الحياة.

والآن علماء يدَّعون العلم وأنهم علماء وأنهم مفتون يستاءون من هدم الأوثان! ألا يدل على ضياع العقيدة وضياع التوحيد في أوساط المسلمين إلا من وفقه اللَّه -تبارك وتعالى-.

إذن يجب أن نهتم بتوحيد اللَّه ﷻ، ولا نقيم وزنًا لدعوة هؤلاء مهما تطاولوا ومهما ادَّعوا لأنفسهم من الادِّعاءات الفارغة.

إذن يجب تربية المسلمين على عقيدة التوحيد توحيد الأنبياء -عَلَيْهِم الصَّلَاةُ وَالسَّلَام-، وأن نملأ نفوسهم وعقولهم بأهمية هذا التوحيد، وأن نقول لهم هذا الكتاب كتاب توحيد ليس كتاب شعارات طنانة، كتاب توحيد يجب البدء بالتوحيد والتربية على التوحيد، ورفع راية الجهاد من أجل التوحيد والحياة والموت من أجل هذا التوحيد.

أسأل اللَّه أن يوفق الأُمَّة لتدرك رسالة التوحيد رسالة الأنبياء جميعًا -عَلَيْهِم الصَّلَّاةُ وَالسَّلَام-؛ فيبذلون مُهَجَهُم وحياتهم وما يمتلكون من أموال ومن وسائل في هذه الحياة لإعلاء كلمة التوحيد.

أسأل اللَّه أن يُفَقِّه المسلمين في ذلك، وأن يبِّصرهم، وأن يأخذ بنواصيهم ويرفعهم إلى هذا المستوى العظيم التأسي بالأنبياء -عَلَيْهِم الصَّلَّاةُ وَالسَّلَام- وأتباعهم الصَّادقين؛ إنَّ ربنا لسميع الدعاء.

وصلى اللَّه على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

(١) متفق عليه من حديث عائشة وابن عبَّاس ﷺ (خ / ٤٤٣٤/ ٤٤٤٤). ك / المغازي. باب مرض النبي ﷺ وفاته، (م/ ٥٣١ / ١١٨٧) ك/ الصلاة. باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد.

تفسير كلمة التوحيد

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمدَ للَّه نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسنا ومن سيِّئاتِ أعمالنا، من يهدِهِ اللَّهُ فلا مُضِلَّ له، ومن يُضْلِلْ فلا هادي له، وأشهد أن لا إلهَ إلَّا اللَّهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمّدًا عبدُه ورسولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠- ٧١].

أمَّا بعد: فإنَّ أصدقَ الحديثِ كلامُ اللَّه، وخيرَ الهدي هديُ محمَّدٍ ﷺ، وشرَّ الأمورِ محدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النَّار.

فإنَّ التمسك بالكتاب والسنة عقيدةً ومنهجًا أمرٌ لابدَّ منه لكلِّ مسلم؛ فعلينا أن نستمسك بكتاب اللَّه وسنة رسول اللَّه ﷺ التي أُوتي رسولُ اللَّه ﷺ فيها جوامع الكلم.

ومن جوامع كَلِمِه ﷺ التي تحتوي الدِّين كلَّه حديث جبريل المشهور كما روى الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «بَيْنَمَا كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ جَاءَنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، فقال: أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلَامِ. فَقَالَ: **الإِسْلَامُ: أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّه، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**، قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُه»؛ لأنَّ من عادة الجاهل إذا سأل عن أشياء لا يعرفها لا يقول للمجيب: صدقت وإنما يقول: صدقت من يعرف تلك الإجابة «فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُه».

«قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ قَالَ: **الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ** قَالَ: **فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ** قَالَ: **الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لم تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ** قَالَ: فأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ قَالَ: **مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ** قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عنْ أَمَارَاتِها قَالَ: **أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ**؛ ثُمَّ ذَهَبَ وَمَكَثَ مَلِيًّا؛ فَقَالَ: **أَتَدْرُونَ مَنِ السَّائِلِ؟** قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَم. قَالَ: **ذَلِكَ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ لِيُعَلِّمَكُمْ دِينَكُمْ**»[1].

جاء جبريل في هذه الصُّورة الغريبة التي حكاها عمر ﷺ بأمر من اللَّه؛ لأنَّ اللَّه تعالى يقول: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤]، وجبريل عليه السلام لا يأتي إلا بأمرٍ من اللَّه، فقد أبطأ على النبي ﷺ يومًا، فسأله النَّبي ﷺ فأنزل اللَّه ﷻ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

قال النَّبيُّ ﷺ: «**أَتَاكُمْ لِيُعَلِّمَكُمْ دِينَكُمْ**»؛ لأنَّ هذه أسئلةٌ عظيمة حَوَتْ أركانَ الإسلام وأركانَ الإيمان والمرتبةَ الثالثة الإحسان، ونصوص القرآن والسُّنَّة تدور على هذه الأصول وتضيف إضافات في العقائد والمعاملات وغيرها، ذكر أركان الإيمان وأركان الإسلام التي لابدَّ منها، لابدَّ أن تتوفر جميعًا في المسلم؛ فإذا فَقَد واحدةً منها فلم يؤمن به فليس بمسلم ولا مؤمن، وجعل أركانَ الإسلام خمسة؛ كما في حديث عبد اللَّه بن عمر ﷺ: «**بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّه، وَإِقَامِ الصَّلَاة، وَإِيتَاءِ الزَّكَاة، وَصَوْمِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**»[2]؛ فهذه أركان الإسلام.

شهادة أن لا إله إلا اللَّه: وهي أساس الدِّين كلِّه، ولا يدخل المرء في الإسلام إلا بها، وإذا أتى بما ينقضها خَرَجَ من الإسلام، ومعناها لا معبود بحقٍّ إلا اللَّه، تقول: «أشهد أن لا إله إلا اللَّه»، يعني: تشهد بأنَّ اللَّه وحده هو الذي يستحق العبادة، وعبادة غير اللَّه كلُّها باطلة، الأنبياء والملائكة والصَّالحون والأشجار والأحجار والشَّمس

(١) أخرجه أحمد (١/ ٥١ - ٥٢) ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان. برقم: (٨)
(٢) رواه أحمد (٢/ ١٢٠) والبخاري/ كتاب الإيمان.، باب دعاؤكم إيمانكم برقم: (٨)، ومسلم. كتاب الإيمان، باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام برقم: (١٦).

والقمر كلُّ هذه الأشياء عُبِدَت من دون اللَّه، ولكنَّ عبادتها باطلة، فيشهد المؤمن أنَّ اللَّه وحده هو الذي يستحق العبادة، لا يشاركه أحد في ذَرَّةٍ منها؛ فإذا صَرَفْتَ شيئًا من هذه العبادة التي يجب إخلاصُها للَّه وصرفُها إليه وحده والتوجُه إليه بها وحده، إذا صَرَفت شيئًا من هذا لغير اللَّه أشركت باللَّه - والعياذ باللَّه -.

فيجب أن نعرف معنى العبادة ونعرف معنى «لا إله إلا اللَّه»، فإنَّ أناسًا كُثُرًا لا يعرفون معنى العبادة ولا يعرفون معنى هذه الكلمة «لا إله إلا اللَّه»، يقولون: معناها: لا خالق ولا رازق ولا محيي ولا مميت ولا ضار ولا نافع إلا اللَّه... وهكذا، وهذا الكلام حق، لكن ليس هو معنى «لا إله إلا اللَّه»، فإنَّ هذا الكلام الذي يقولونه إنما هو الإيمان بتوحيد الربوبية الذي كانت تؤمن به قريش ومن سبقها من الأمم التي كذَّبت الأنبياء، وهم يؤمنون بأنَّ اللَّه هو ربُّ السَّماء وربُّ الأرض، وأنَّه خالق هذا الكون ومدبِّرُه ومنظِّمُه؛ ولكن لا يعترفون بأنَّه هو الذي يستحق العبادة وحده.

ومن الأدلة على الفَرق بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية - كلُّها حقٌ واللَّه - أنَّ الربوبية لها معنى خاص وصفات خاصة، والإلهية لها معنى خاص، - ولابدَّ منهما - ، فالكفار كانوا يفرِّقون بين توحيد الربوبية وبين توحيد الألوهية يعترفون بتوحيد الربوبية؛ كما قال ﷻ عنهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣]، لا يكابرون في هذا.

وفي آيات كثيرة جاءت في سُوَرٍ عديدة من القرآن أنهم يؤمنون بتوحيد الربوبية، لكنهم لا يؤمنون بتوحيد الألوهية، قال تعالى مخبرًا عن حالهم وواقعهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥] وقال ﷻ عنهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٥ - ٦]، أي: أمورٌ مُبَيَّتَةٌ ضدَّ آلهتنا، فيتَّخذون الآلهة في عباداتهم في حين يقرُّون بتفرُّد اللَّه ﷻ بالخلق والرَّزق، لكن العبادة مشتركة في نظرهم الضَّال! ويأتي النَّبي ويدعوهم إلى هذا التوحيد توحيد الألوهية؛ فيكذِّبونه ولا يكذِّبونه في توحيد الربوبية.

كما قال اللَّه ﷻ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ

فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ﴾، فآمن بهذا التوحيد واتبع الرُّسل وأطاعهم ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [النحل: ٣٦] ؛ فكذَّب بهذا التوحيد ووقع في الضَّلال البعيد وكفر باللَّه وأشرك به وكذَّب رُسله-، المقصود أنَّ الأمم الكافرة التي كذَّبت الرُسل ما كانت تنكر توحيد الربوبية؛ يؤمنون بربوبية اللَّه ﷻ وأنَّه هو الذي خَلقَ هذا الكون ودبَّره ونظَّمه وخَلَقَهم وأعطاهم السَّمع والبصر وأنزل لهم المطر من السَّماء وأنبت لهم النبات، كلُّ هذا يعترفون به ولا يُنكِرونه.

وهذا التوحيد هو الذي وقف عنده كثيرٌ من فِرَقِ الضَّلال لا يعرفون غيره وكلمة «لا إله إلا اللَّه» يقولونها ويؤذِّنون بها على المآذن، يعلنونها في اليوم خمس مرَّات؛ لكنَّهم لا يعرفون معناها ولا يعرفون شروطها، والذي أضلَّهم في هذا الباب أهلُ الفلسفة والمنطق، أهل الكلام الضَّال الذين قال فيهم الإمامُ الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «حكمي في أهل الكلام أن يُضربوا بالجريد والنِّعال ويطاف بهم في العشائر والقبائل ويقال هذا جزاء من ترك كتاب اللَّه وسنة رسول اللَّه وأقبل على الكلام»[(١)].

وأئمَّة الإسلام كلهم حرَّموا هذا الكلام الباطل الذي أقبلت عليه الفِرَق الضَّالة من الخوارج والرَّوافض والمعتزلة حتى الأشاعرة التحقوا بهم والصُّوفية؛ فأضلَّهم علم الكلام الذي أجمع سلفُ الأمَّة على تحريمه وضلال أهله وقال فيه الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «لأن يَلقَى اللَّهَ العبدُ بكلِّ ذَنبٍ ما خلا الشرك خير من أن يلقاه بشيء من الهوى»[(٢)]، - والعياذ باللَّه - ؛ فإنَّه أوقعهم في ضلالٍ بعيد، أوقعهم في تعطيل أسماء اللَّه وصفاته فعطَّلوا صفات اللَّه بآرائهم وعقولهم وفلسفاتهم، وأفسدوا معنى توحيد العبادة، وأعطوا لهذه الكلمة «لا إله إلا اللَّه» معانٍ ليست منها ولا تدل عليها هذه الكلمة، فإنَّ الأمر الذي تدل عليه إنما هو أن اللَّه هو المعبود المستحقُّ للعبادة وحده لا يشركه فيها أحد، والقرآن دلَّ على أنَّ الأنبياء كلَّهم دَعَوْا إلى معنى هذه الكلمة وإلى تحقيقها.

---

(١) رواه البغوي في (شرح السنة / ج١/ ص٢١٨) ونصر المقدسي في (مختصر كتاب الحجة على تارك المحجة، ص٤٧٥) وأبو نعيم في (الحلية / ج٩/ ص١١٦) والسيوطي في (الأمر بالاتباع/ ص٨٣)

(٢) أخرجه البيهقي في (الاعتقاد) (ص ١٥٨)، كما في التعليق على «شرح السُّنَّة» للبربهاري، للشيخ خالد الردادي (ص ١٢١).

وقال اللَّه -تبارك وتعالى-: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] أي: ليقولوا: «لا إله إلا اللَّه» ويعبدوه ويتقربوا إليه بما يستحقُّ من العبادة التي شرعها وأذِن فيها.

فيجب أن نعرف معنى «لا إله إلا اللَّه»؛ بأنَّه لا معبود بحق إلا اللَّه، وأنَّ غيره من الأنبياء جميعًا والرُّسل والملائكة والصَّالحين لا يستحقون ذَرَّةً من العبادة؛ بل هم كلُّهم عباد اللَّه، قال اللَّه ﷻ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣-٩٥].

وكلُّهم يدعون إلى إخلاص العبادة للَّه ﷻ؛ فهم أعبدُ النَّاس، الأنبياء هم سادة العُبَّاد وقادتهم، يخافون اللَّه أشدَّ الخوف، ويُصَلُّون له ويصومون له، ويُزَكُّون ويخشعون، ويخضعون، ويخافون، ويرتجفون خوفًا من اللَّه ﷻ ويستحيون من اللَّه ﷻ، ويتوكلون على اللَّه ﷻ، ويعتمدون عليه في كلِّ شئونهم وأمورهم، ويدركون أنه لا حول لهم ولا قوة إلا باللَّه ﷻ، ويعتقدون أنهم لا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، ولا يملكون لغيرهم شيئًا من هذه الأمور.

وقد قال اللَّه لأفضلهم وأكرمهم وهو محمَّد ﷺ وخاتمهم: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، اللَّه يأمر الرسول أن يقول هذا يقولها مؤمنًا بها وداعيًا إليها ﷺ بصدقٍ وإيمانٍ وإخلاص، وأمره ﷺ أن يقول: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن: ٢١]؛ فإذا كان هذا حال رسول اللَّه ﷺ أفضل خلق اللَّه وأقربهم إليه لا يملك لغيره نفعًا ولا ضرًّا فكيف بمن سواه ومن هو دونه؟! ولمَّا أنزل اللَّه عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] صعد على الصفا وقال: «**يا بني فلان ويا بني فلان، يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني لؤي!**» فاجتمعوا فقال: «**إِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيد، أَرَأَيْتُمْ لَوْ قُلْتُ لَكُمْ أَنَّ خَيْلًا مِنْ وَرَاءِ هَذَا الجَبَلِ أَتُصَدِّقُونِي؟ قَالُوا: مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا، قَالَ: فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيد**»[1]؛ فغضب أبو لهب - قبَّحه اللَّه

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري / كتاب التفسير، باب: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ برقم (٤٧٧٠)، ومسلم/ كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ برقم (٢٠٨).

- وشتمه وقال: تبًّا لك ألهذا دعوتنا؟! دعاهم رسول اللَّه ﷺ إلى عبادة اللَّه وحده وإلى ترك عبادة اللَّات والعُزَّى ومناة الثالثة الأخرى وما شاكلها من المعبودات، وأبو لهب على رأس الزعماء المعارضين لرسول اللَّه ﷺ والمكذِّبين له، وقد آذى رسولَ اللَّه ﷺ أذًى شديدًا من أجل هذا التوحيد، فلو أنَّه قال لهم: مَنْ ربكم؟ مَنْ خلقكم؟ يقولون: اللَّه، وعلى رأسهم أبو لهب، مَنْ خَلَقَ السَّماء؟ من خَلَقَ الأرض؟ يقولون: اللَّه، ما يكابرون أبدًا، لكن عندما يقول لهم: «لا إله إلا اللَّه» يستكبرون.

فأهل الكلام جاءوا بمعانٍ فاسدة لـ «لا إله إلا اللَّه»؛ أضلت أُممًا عن معنى هذه الكلمة، وإلى الآن كلُّ الفِرَق إلَّا أهل المنهج السَّلفي - واللَّه أعلم - ولا أدري لعل بعض الأفراد يشاركونهم، وإلَّا فالمناهج والمدارس - مدارس الصُّوفية ومدارس الرَّوافض - على هذا التفسير الباطل؛ فلهذا ترى عبادة القبور، والتعلق بغير اللَّه، واعتقاد أنَّ الأولياء يعلمون الغيب ويتصرَّفون في الكون.. حتى وقعوا في الشرك في توحيد الربوبية؛ لجهلهم بمعنى «لا إله إلا اللَّه»؛ ولجهل بعضهم حتى بمعاني الربوبية الأمر الذي ما جهله الكافرون؛ لأنه اندَّس في صفوف هذه الفِرَق من الرَّوافض والصُّوفية ملاحدة وزنادقة يريدون هدم الإسلام؛ فَيَلْبَسْ هذا الملحد وهذا الزِّنديق، فيَلْبَسُ لباسًا إسلاميًّا لباس العُبَّاد الزُّهَاد وهو ملحدٌ في نفس الوقت، فيَدُس الشِّرك والإلحاد والحُلول ووحدة الوجود.

كلُّ هذه الأمور انتشرت في فِرَق التصوُّف؛ حتى لا أظن الآن فرقة صوفية على وجه الأرض إلَّا وتقع في الشِّرك وفي الحلول ووحدة الوجود - في الجملة - وقد يَسْلَم بعض الأفراد من الوقوع في هذا الإلحاد؛ لكن رءوس هذه الفِرَق فيما أظن لا يَنْجونَ من هذا الضَّلال، ومن اعتقاد أنَّ الأولياء يعلمون الغيب ويتصرَّفون في الكون، ومن عقيدة الحلول ووحدة الوجود ومن الدعاء لغير اللَّه والذبح لغير اللَّه والاستعانة بغير اللَّه؛ - فنسأل اللَّه العافية - .

فعلينا أن نعرف معنى «لا إله إلا اللَّه» معرفةً واضحة جلية، ونعرف معنى العبادة التي تضمنتها «لا إله إلا اللَّه».

والعبادة كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «العبادة اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبه اللَّهُ ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة»، يجمع عبادة القلوب وعبادة اللِّسان وعبادة الجوارح.

فالتي تتعلَّق بالقلب: الخوف والرجاء والرَّغبة والرَّهبة والتوكل والمحبة وما شاكل ذلك من الأمور القلبية، هذه عبادات قلبية لابدَّ منها ولا يجوز أن نصرف منها شيئًا لغير اللَّه.

وعبادة اللِّسان: يأتي في مقدِّمتها النُطق بالشهادتين، ثم سائر الأذكار من تلاوة القرآن والواجبات والمستحبات؛ فيكون النطق باللسان في الصَّلاة واجبًا بقراءة الفاتحة في كلِّ ركعة؛ كما قال النَّبيُّ ﷺ: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ»[1]؛ فهذه من الأمور التي يجب على المسلم أن يطبِّقها ويتكلم بها، ومنها أمور مستحبة مثل تلاوة القرآن ومثل ذكر اللَّه وتسبيحه وتهليله أعقاب الصَّلوات وعند النوم وفي السَّفر وفي الحضر وما شاكل ذلك، فالعبادات تنقسم إلى واجبات ومستحبات، فعلى المسلم أن يعرفها ويتقرَّب بها إلى اللَّه عَزَّوَجَلَّ.

والجوارح: يأتي في طليعة أعمالها القيام في الصَّلاة والرُّكوع والسُّجود، وأعمال الحج من الطواف وسائر المناسك والشعائر، وغير ذلك من عبادات الجوارح، تصلي للَّه بجوارحك مع قلبك ولسانك تركع وتسجد وترفع من الركوع وتجلس بين السجدتين، والحج ترحل ببدنك لتؤدي هذا الرُّكن، تطوف بالبيت وتسعى بين الصَّفا والمروة وتؤدي المناسك في عرفات وغيرها، هذه عبادات تُمَارَس بالبدن بالإضافة إلى أنَّك تحتاج إلى مالٍ تحقق به هذه العبادات.

والعبادات بهذا الاعتبار كثيرة؛ عبادات القلب وعبادات اللِّسان وعبادات الجوارح يجب أن نؤديَّها للَّه بإخلاص، الإخلاص لابدَّ منه في كلِّ عبادة نتقرَّب بها إلى اللَّه عَزَّوَجَلَّ نسأل اللَّه تعالى أن يُلهمنا وإيَّاكم الرشد، وأن يوفقنا ويرزقنا الفقه في دينه خاصَّة في أبواب دين

---

(١) متفق عليه: خ/ كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها، برقم (٧٥٦)، م/ كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، برقم (٣٩٤).

اللَّه ﷻ، فإنَّ الفقه في العقيدة يُسَمَّى بالفقه الأكبر، والفقه في الأحكام يُسَمَّى بالفقه الأصغر والفقه الأصغر بكلِّ تفاصيله مبنيٌّ على الفقه الأكبر الذي هو العقيدة.

نسأل اللَّه أن يفقهنا وإيَّاكم في دينه.

وصلى اللَّه وسَّلم على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

* * *

□ الأسئلة والأجوبة:

السؤال الأول: ما رأيكم فيمن يدَّعي أنَّ الكلام في التوحيد والعقيدة يُفرِّق المسلمين؟

الجواب:

هذا كلام يقال من فئات معروفة احترفت السِّياسة وتهاونت بأساس الإسلام والإيمان وهو العقيدة التي جاء بها جميع الأنبياء -عليهم الصَّلَاةُ وَالسَّلَام-، ولا شك أنَّ الدَّعوة إلى التوحيد تُفَرِّق، تُفَرِّق بين من؟ بين أهل الحق وأهل الباطل بين أهل التوحيد وأهل الشِّرك؛ كما قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ [النمل: ٤٥] قوم صالح لما جاءهم يدعوهم إلى اللَّه ﷻ إذا هم فريقان يختصمون.

وهكذا انقسم قوم نوح؛ كما قال ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۗ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠] والبقية افترقوا وتركوه واتَّبعوا الشيطان.

كذلك إبراهيم عليه السلام خالفه قومه وما آمن معه في بلده الأصلي إلا زوجه سارة وابن أخيه لوط، وبعد وقت طويل دعا اللَّه ﷻ في آخِر عمره فوهبه إسماعيل وإسحاق، وما من نبيٍّ إلَّا ويفترق عليه النَّاس، ما يتبعه النَّاس كلُّهم؛ كما قال ﷻ: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

فعلى سياسة هؤلاء يكون نوح وإبراهيم وغيرهم من الأنبياء أخطئوا! كيف؟ لأنهم

فرَّقوا الأُمَّة! كان ينبغي أن يحافظوا على وحدة الأُمَّة الوحدة الوطنية والوحدة القومية، أليس كذا على منطق هؤلاء؟! حتى تجدهم يتآخون مع النَّصارى واليهود والرَّوافض والباطنية، حفاظًا على الوحدة الإنسانية، لا يتصادمون مع اليهود والنَّصارى ولا مع إخوانهم الرَّوافض، هذا واقع هؤلاء وهذه دعوة هؤلاء الذين يقولون هذا الكلام، وهذه ضدّ الرِّسالات كلِّها وضد دعوات الرُّسل جميعًا ومنهم خاتمهم محمد ﷺ.

واللَّه سمَّى القرآن فرقانًا؛ لأنَّه يفرِّق بين الحق والباطل، ومحمَّدٌ فَرقٌ أو فرَّق بين الناس، فرَّق بين أهل الحق والهدى والإيمان، وبين أهل الكفر والكذب والفجور والشِّرك والضَّلال، ولابدَّ أن يجعلهم اللَّه ﷻ يوم القيامة فريقين، فريقٌ في الجنة وفريقٌ في السَّعير.

فهؤلاء أهل ضلال وأهل أهواء، الذي يسبُّ الصَّحابة لا يضره! يكفِّرهم ما يضره! لماذا؟ حفاظًا على الوحدة! وقد يسمع أحدُهم من النَّصارى طعنًا الإسلام وفي الرَّسول ﷺ ويسكت! إخوانهم! هذه طرق ضالة.

علينا أن نعرف منهج الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وندعو إلى توحيد اللَّه أولًا قبل كلِّ شيء، وإلى تحقيق معنى «لا إله إلا اللَّه»، وإلى تحقيق معاني الإسلام الأخرى التي تقوم على هذه الكلمة وتقوم على الإيمان، ولا نلتفت لمثل هذه التشويهات على الدعوة إلى اللَّه وأهلها.

فإنَّ الأنبياء وجدوا مثل هذه التشويهات وأشد؛ ولهذا قال رسول اللَّه ﷺ: «**أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الصَّالِحُونَ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ**»[1]، أشدُّ النَّاس أذى واجهوه هم

---

(١) صحيح لغيره:
أخرجه أحمد في المسند (١/ ١٧٢) والترمذي في السنن (٤/ ٦٠١رقم٢٣٩٨) وابن ماجه في السنن (٤/ ٣٦٩رقم٤٠٢٣) وابن سعد في الطبقات (٢/ ٢٠٩) والدارمي في السنن (٢/ ٣٢٠) وابن حبان في الصحيح (٧/ ١٦٠رقم٢٩٠٠) والحاكم في المستدرك (١/ ٩٩) والضياء في المختارة (٣/ ٢٤٦رقم١٠٥٣) من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ.
والحديث صححه الحاكم وابن كثير في التفسير (٣/ ٤٠٥) والألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ١/ ٢٧٣رقم١٤٣ - ١٤٥).

الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وهم أسوتنا، والذي يسلك طريقهم لابدَّ أن يُؤذى، وقد يُقتل وقد يشَّرد وقد يُسجن. . ، هذا أمر عظيم تُبذَل فيه المُهَج والأموال.

لكن الحريصين على الكراسي وعلى الحياة يحشدون النَّاس حولهم ولا يهمهم أن يموت ابنه وأخوه وجاره وصديقه في النَّار، ولو رآه يسجد لغير اللَّه ﷻ ويشرك به لا يبالي! هذا من الغش - والعياذ باللَّه - ويحملون أوزارهم وأوزار الذين يتبعونهم، وتصدق عليهم الآيات مثل قول اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

وقوله ﷻ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩].

كيف ترى النَّاس يطوفون بالقبور ويستغيثون بغير اللَّه ويذبحون لغير اللَّه وتقول الدَّعوة إلى التوحيد تسبب فرقة؟! هو واقع في الشرك وما تبيَّن له دين اللَّه الحق ولا تبيَّن له التوحيد ولا تبيَّن له الفرق بين التوحيد والشِّرك؛ ثمَّ إذا ما قَبِلَ دعوتك لا يدخل في صفك؛ فهؤلاء حريصون على حشد النَّاس حتى يصلوا إلى الكراسي، وإذا وصلوا إليها لا يُطبِّقون شعاراتهم - لا حكم إلا للَّه - يصبح الحكم لهم لا للَّه ﷻ -نسأل اللَّه العافية-.

السؤال الثاني: إذا كان الأشاعرة وأهل الكلام لا يعرفون توحيد العبادة ويفسِّرون التوحيد بتوحيد الربوبية، فهل يعني هذا أنهم لا يكفِّرون من صرف شيئًا من العبادة لغير اللَّه؟

الجواب:

إذا كانوا لا يعرفون معنى العبادة كيف يُكَفِّرون من يقع في عبادة غير اللَّه؟! يقولون في كلامهم: العبادة عندهم السُّجود للصنم، السُّجود للصنم هذه عبادة لغير اللَّه، أمَّا الدُّعاء أمَّا الذَّبح أمَّا النَّذر فلا يرون أنها تنافي «لا إله إلا اللَّه».

فإذا رأيته ينكر هذه الأشياء ويقول أنها شرك فمعناه أنه عرف معنى «لا إله إلا اللَّه»؛ لكن هل كلُّ أشعري هكذا يعرف معنى «لا إله إلا اللَّه»؟ كيف يعرف معنى «لا إله إلا اللَّه» وهو يقول لا خالق ولا رازق إلا اللَّه ؟!، فإذا قلت لا معبود بحق إلا اللَّه والدُّعاء عبادة والذبح لغير اللَّه عبادة والشِّرك وكذا وكذا يقول لك: لا! أنت تكفِّر المسلمين تقول هذا شرك!

فعدم فهم معنى «لا إله إلا اللَّه» يترتب عليه هذا الضَّلال، هذا الضَّلال الموجود الآن؛ التعلُّق بالقبور وكذا نشأ عن هذه التفسيرات الفاسدة لمعاني «لا إله إلا اللَّه».

قد يعرف بعض الأشاعرة لاسيما بعد جهاد ابن تيمية وابن عبد الوهاب - رحمهما اللَّه - معنى «لا إله إلا اللَّه» لكن يَضل مع قومه ويَظَّل معهم من أجل الدنيا - والعياذ باللَّه - قد يعرف هذا أو شيئًا منه، وقد يدرك أن هذا شرك ويدرك أن المنهج السَّلفي هو الدعوة الحق ثم يَظَل مع قومه، وقد صرَّح كثيرٌ من رؤسائهم بهذا، يقول: الحق مع السَّلفيين، لماذا لا يترك هؤلاء؟ يقول: لمن أتركهم؟! أنا لا أتركهم، ولا يبيِّن لهم - فنسأل اللَّه العافية - .

لو كان الأشاعرة والصُّوفية وهؤلاء على طريقة محمد ﷺ وصحابته وأئمَّة الإسلام في معنى «لا إله إلا اللَّه» أترى هذه القبور الآن التي تملأ الدنيا، يعني رءوس المدارس والجامعات يشاركون في أعياد مثل البدوي وأمثاله، وعبد القادر، يشاركون في الأعياد الشِّركية، أصحاب عمائم وحملة شهادات عليا وهم لا يتورَّعون من مشاركة الجهال والعوام في هذا الشِّرك باللَّه ﷻ .

السؤال الثالث: لا يخفى على فضيلتكم أهمية التوحيد، وما قام به أئمَّة الدعوة في هذا العصر وعلى رأسهم الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ لكن هناك من يقول بأنَّ الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ لم يفعل شيئًا ولم يُقدِّم شيئًا؟

الجواب:

الذي قال هذا الكلام جاهل لا يعرف ما يقول، ولا يعرف سيرة هذا الرجل، وأنَّ أَزِمَّة الأمور كانت بيده، وكان آل سعود يأتمرون بأوامره، ويتصرَّف في أمر الدولة من

هذا الموقع الكبير الذي يحترمه؛ لأنَّه إمامهم وأستاذهم ومعلِّمهم، وهم يدركون أنهم أنقذهم اللَّه به من الضَّلال، وهم أهل أخلاق عالية وفِطَر سليمة؛ فكانت أزمَّة الأمور بيده لا يُصدِرُون أمرًا إلَّا بأمره، ولا يفعلون شيئًا إلا بإشارته، فهو كبير الدَّولة وإمامها لا شك؛ فهذا الجاهل لا يعرف تأريخ هذا الرَّجل، ولا يعرف واقعه ولا واقع من حوله من آل سعود - نسأل اللَّه العافية -.

السؤال الرابع: هل هناك ضابطٌ يُفَرَّقُ به بين الشِّركين الأكبر والأصغر؛ فإني قرأت كثيرًا في كتب التوحيد؛ فإذا جاءوا إلى تعريف الشِّرك الأصغر لم يزيدوا على ذكر الأمثلة ولا يذكرون ضابطًا يُعرف به الشِّرك الأصغر؟

الجواب:

الأمثلة هي التي تبين لك الفَرْق، الشِّرك الأكبر هو الذي ينافي أصل التوحيد، ينافي «لا إله إلا اللَّه» والشرك الأصغر هو الذي ينافي كمالها، كمال التوحيد، وقد بدأ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ كتابه كتاب التوحيد على هذا الأصل، بدأ بما ينافي أصل التوحيد ثم أتبعه بما ينافي الكمال من الحَلِف بغير اللَّه ومن الرِّياء وما شاكل ذلك، هذا هو الضابط، تَعَلُّق التميمة إذا كان ما فيها تعظيم، وما شاكل ذلك.

السؤال الخامس: هل يجوز لي اقتراض قرض من بنك ربَوي لشراء بيت أفيدونا جزاكم اللَّه خيرًا؟

الجواب:

لو كنت تحتاج إلى خبزة لتأكل بها وتنقذ بها نفسك من الموت فلا تأخذ من البنك شيئًا فضلًا عن بناء بيت أو شراء سيارة، اللَّه أحلَّ لك الميتة ولحم الخنزير والموقوذة والمتردِّيَة، أحلَّها لك في حال الاضطرار، وما أحل لك الرِّبا، الرِّبا خطيرٌ جدًّا خطيرٌ جدًّا، فلا تتعامل بالرِّبا واصبر؛ فإنَّ اللَّه ﷻ يقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق: ٢- ٣]، فالرِّبا إثمٌ كبير، وأمرٌ خطير، والذي يستحلُّه يكفر؛ فإن احتجت بيتًا فاصبر حتى يرزقك اللَّه، والجأ إلى اللَّه وابذل الأسباب حتى يُهيِّئ اللَّه لك بيتًا، وإلا تموت وأنت سليم من محاربة اللَّه؛ لأنَّ المرابي محارب للَّه - والعياذ باللَّه - ؛ كما

قال ﷻ: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٧٩] أعلن الحرب على أهل الرِّبا، و«لعن رسول اللَّه ﷺ آكل الرِّبا وموكله وكاتبه وشاهديه»[1].

ماذا تريد بعد اللَّعن؟! هل ينفعك البيت وأمامك جهنَّم؟! فليتق اللَّه المؤمن وليصبر على فقره وعلى حاجته؛ فإنَّ اللَّه ﷻ قال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٥]، اصبر ويعطيك اللَّه هذا الجزاء العظيم، بدل أن تتعرض للعنه وغضبه وسخطه وعقابه، تحمَّل هذه الشِّدة في الدنيا، وليست بشيء بالنسبة لغضب اللَّه وعقابه - .

نسأل اللَّه أن يكفينا بفضله ومَنِّه كلَّ ما يسخطه ويغضبه؛ إنَّ ربنا لسميع الدعاء.

وصلى اللَّه على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

(١) أخرجه مسلم في الصحيح (١١/ ٣٦رقم١٥٩٨ - نووي) من حديث جابر ﷺ.

وجوب الاتباع
والتحذير من
مظاهر الشرك والابتداع

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمدَ للَّه نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسنا ومن سيِّئاتِ أعمالنا، من يهدِهِ اللَّهُ فلا مُضِلَّ له، ومن يُضْلِلْ فلا هادي له، وأشهد أن لا إلهَ إلَّا اللَّهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمّدًا عبدُه ورسولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الاحزاب: ٧٠- ٧١].

أمَّا بعد: فإنَّ أصدقَ الحديثِ كلامُ اللَّه، وخيرَ الهدي هديُ محمَّدٍ ﷺ، وشرَّ الأمورِ محدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النَّار.

أيُّها الإخوة نشكُر اللَّه -تبارك وتعالى- على نعمةِ الإسلام، ونَسألُ اللَّه أن يُؤَلِّف بين قلوب المسلمين جميعًا وخاصةً شبابَهم أن يُؤلِّف بين قُلوبِهم على الحق، وأن يجمع كلمتَهم على التَوحيد والسنة، وأن يُوفِّق الجميع لأن يعتصموا بكتابِ ربِّهم وَسُنَّةِ نبيِّهم، وأن يجعلهم مُدرِكين تمام الإدراك أنَّ إمام هذه الأُمَّة وقائدها هو محمَّد الذي إذا قال يجب أن يُطَاع وإذا أمَر يجب أن تُنَفَّذَ أوامرُه - عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام - ، والذي إذا أخبَر يجبُ أن يُصَدَّق، أرجو أن تَتَعَمَّق هذه المعاني في نفوسِ هذه الأُمَّة وخَاصَّةً الشَّباب الذي يَعتزُّ بالانتماء إلى الإسلام.

وبعد هذا؛ فأقول: إنَّ الاتباع لما جاء به محمَّد عبادةً وشريعةً وأخلاقًا وسياسةً هو أمر مُحتَّم ليس لنا فيه أيُّ خِيَار ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الاحزاب: ٣٦]، ليس لنا أيُّ خِيَار إذا قضى اللَّه أو رسولُه أمرًا سواءً ذلكم الأمر يتعلَّق بالعقيدة، أو عبادة أو غيرهما مما أشرنا

إليه سابقًا، إنَّه لا يَسَعُنَا إلَّا الامتثال لهذا الرَّسول - عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام - الامتثال لما قضاه اللَّه وقضاه رسوله أرجو أن يَتَعَمَّق هذا المعنى في نُفُوسِنا، وألَّا يكون كلامًا تَلُوكُه الألسُن ثم يَتَبَخَّر أمام الأوامر والنَّواهي والأخبار التي جاء بها محمَّد - عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام -.

أمَّا صحابة رسول اللَّه، أمَّا القرون المُفَضَّلة التي شهد لها رسولُ اللَّه بالخيريَّة فما كان لهم قائد ولا إمام إلا هذا الرَّسول، وليس لهم كتاب إلا هذا الكتاب، وليس لهم سُنَّة إلَّا سُنَّة محمَّد - عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام - وسُنَّة الخلفاء الرَّاشدين التي أَمَرَنا رسولُ اللَّه - عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام - أن نعضَّ عليها بالنَّواجذ[1].

يا شباب الإسلام! يجب أن نتخلص من الأهواء والتحزُّبَات التي لا نجني منها إلَّا الشَّر والضَّياع والذُّل والهوان، يجب أن تُدرِكُوا أيُّها الشَّباب أنَّ العزَّة كلَّ العزَّة والسَّعادة كلَّ السَّعادة في الدُّنيا والآخرة لم تُضمَن إلَّا لمن يَرفَعُ رأسَه بما جاء به محمَّد ﷺ، ويعتز بما جاء به محمَّد ﷺ إذا سَادَ في أوساط الشَّباب قال اللَّهُ قال رسول اللَّه ﷺ، وتُطَأطَأُ الرُّءوس سمعًا وطاعةً لذلك، فإنَّا نكون قد سلكنا الطَّريق الصَّحيح إلى السِّيادة والعزَّة في الدُّنيا، وإلى النَّجاة من غضب اللَّه، وإلى دخول جنات عرضها السموات والأرض، وإلى إحراز رضوان اللَّه -تبارك وتعالى- وإذا كان يسود في السَّاحات قال فلان! وقال فلان!، الطَّائفة الفُلانية.. والطَّائفة الفُلانية... دون تمييز بين الحق والباطل ودون تمييز بين الخطأ والصواب والهدى والضلال فإنَّنا في طريقنا إلى الضَّياع ليس في أوَّل الطَّريق، بل نحن في آخر الطَّريق.

فهذا الواقع المُؤلِم الذي جَنَتْ منه الأُمَّة ولا تزال تجني من الذُّل والهوان والضَّياع

---

(١) إشارة إلى ما أخرجه أحمد (٤/ ١٢٦ - ١٢٧) وأبو داود (٤٦٠٧) والترمذي (٢٦٧٦) وابن ماجه (٤٣، ٤٤) وغيرهم من حديث العرباض بن سارية ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «... أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كثيرًا؛ فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ المَهْدِيِّين الرَّاشِدِين، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُور فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَة وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَة» وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في (ظلال الجنة) برقم (٢٧).

ما لا يعلمه إلَّا اللَّه؛ فإنَّنا ندعو شباب الأُمَّة وشيبها في كلِّ مكان في كلِّ بُقعة من مشارقِ الأرض ومغاربِها إلى أن يعودوا إلى ما كان عليه أسلافُهم الصَّالحون الذين كانوا لا يقولون إلا قال اللَّهُ قال رسول اللَّه ﷺ، والجهلة منهم يرجعون إلى هؤلاء ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾، الذِّكر هو الوحي ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

فكان علماؤُهم يُرَبُّون الأجيال على قال اللَّهُ قال رسول اللَّه ﷺ، ويجيبون المستفتين بـ: قال اللَّهُ قال رسول اللَّه ﷺ، ويستنبطون مِنْ قال اللَّهُ قال رسول اللَّه ﷺ، وليس هناك أحزاب وليس هناك فِرَق، ففَتَحُوا الدُّنيا، ولمَّا فَتَحُوا هذه الدُّنيا ونَصَرَهُم اللَّه -تبارك وتعالى- على أعداء اللَّه على القُوَى الكُبرَى في ذلك الوقت، وَدَخَلَت الشُّعُوب تحت راية التَّوحيد كانوا يُعَلِّمُون العَجَم على اختلاف لغاتِهم ولهجاتِهم وأجناسِهم يُعَلِّمُونَهم قال اللَّهُ قال رسول اللَّه ﷺ، ويُرَبُّونهم على قال اللَّهُ قال رسول اللَّه ﷺ، ويُرَبُّونهم على الالتفاف حول هذا القائد محمَّد ﷺ الذي لو كان موسى حيًّا ما وَسِعَه إلَّا اتباعه كما قال ذلك للفاروق عُمر بنِ الخَطَّاب ﷺ حين اسْتَكْتَبَ شيئًا من التَّوراة فرآه رسولُ اللَّه ﷺ في يَدِه فقال: «**مَا هَذَا يَا بْنَ الخَطَّاب؟** قال: شيءٌ كتبته من التَّوراة يوافق ما عندنا فقال: **أَمُتَهَوِّكُونَ يَا بْنَ الخَطَّاب؛ واللَّه لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إلَّا اتِّبَاعِي**»[(١)].

واللَّه إنَّ ذلك لحق، وإنَّ عيسى بنَ مريم عليه السلام سينزِل حَكَمًا عَدْلًا مُقسِطًا[(٢)] لا يأتي بشريعة إنَّما يُنَفِّذ هذه الشَّريعة التي جاء بها محمَّد ﷺ، ولو جاء جميع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ما يَسَعُهُم إلَّا اتِّبَاع هذا الرَّسول الكريم -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام-[(٣)]؛

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٨٧ برقم ١٤١٠٤) وابن أبي شيبة (١٧٢) وابن أبي عاصم في «السنة» (٥/ ٢) وحسنه الشيخ الألباني رحمه الله في «ظلال الجنة»، و«الإرواء» برقم (١٥٨٩) (٦/ ٣٤).

(٢) إشارة إلى ما أخرجه البخاري (٣٤٤٨) ومسلم (١٥٥/ ٣٨٨) وغيرهما عن النَّبي ﷺ «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِه لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُم ابنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا . . .**».

(٣) قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾. قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره (١/ ٥٨٩) يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كلِّ نبيٍّ بعثه من لدن آدم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام لمهما آتى اللَّه أحدهم من كتاب وحكمة وبلغ أيَّ مبلغ ثم جاءه رسول من بعده ليؤمنن به ولينصرنه ولا يمنعه ما هو=

فكيف نستجيزُ أن نتَّبع غيرَه - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام - فيما يخالف الكتاب والسنة؟!

فإنَّ الأُمَّة فعلًا قد تَفَرَّقَت إلى فِرَق وإلى مذاهب شتى ففعلت هذه التَّفرقة وهذا التَّمذهُب وهذه الاختلافات الأفاعيل في هذه الأُمَّة؛ ممَّا جعلهم لُقمةً سائغةً لأعداء اللَّه، وجعلهم يخضعون لأَذَلِّ الأُمَم؛ أليس بَنُو إسرائيل قد كتب اللَّه عليهم الذِّلة والمَسكَنَة وباءوا بغضبٍ من اللَّه؟!

إنَّ أغلب المسلمين الآن من هذه الأُمَّة أذل من إخوان القِرَدَة والخنازير، لماذا؟ لأنَّ أولئك ضَيَّعُوا التَّوراة فَأَذَلَّهُم اللَّه، وهؤلاء ضيعوا أعظم من التَّوراة فأذلهم اللَّه؛ فيجب أن يخرج المسلمون من هذه الدَّوامة بالاعتصام بكتاب اللَّه وبسنة رسول اللَّه وبفقه سَلَفِنا الصَّالح الفقه الصَّحيح في العقائد، وفي العبادات، وفي السِّياسة، والأخلاق، وفي كلِّ ميدان من الميادين، وإلَّا فإنَّ الأمر سيزداد شِدَّةً ومَرَارَةً على مَرَارَةٍ.

ونحن قد لَمَسنَا هذا الذُّل لمَسًا باليد، فماذا نريد بعد هذا ؟! وإلى متى نتيه في هذه الظُّلمات والقرآن بين أيدينا وسُنَّةُ رسول اللَّه ﷺ بين أيدينا وفيهما النَّجاة وفيهما الضَّمان من الهلاك والذُّل والخِزي؟! ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٦].

فقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ ضمانٌ من الضَّلال وضمان أكيد من الشَّقاء معناه الهداية الكاملة لمن يتبع هذا الهُدَى والضَّمَان الكامل من الشَّقاء المُخزي في الدُّنيا والآخرة، وأيُّ خِزي وأيُّ شَقَاء أَشَدُّ من هذا الخِزي الذي يعانيه المسلمون ؟ وأيُّ ضَلَالٍ أَشَدُّ من هذا الضَّلال الذي يعيشه كثير من المسلمين؟ العقائد تخالف كتابَ اللَّه، العبادات عند كثيرٍ من النَّاس تخالف العبادات التي جاء بها محمَّد - عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام - بدءًا من توحيد العبادة؛ باب الأسماء والصِّفات تقوم مدارس على غير كتاب اللَّه وعلى غير سُنَّةِ رسول اللَّه - عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام - حتى بَلَغ ببعض أتباع الهوى والإغراق في الضَّلال

= فيه من العلم والنبوة من اتباع من بعث بعده ونصرته ، ثم نقل عن علي بن أبي طالب وابن عباس ﷺ أنهما قالا : ما بعث اللَّه نبيا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمدا وهو حي ليؤمنن به ولينصرنَّه.

أن يقول: إنَّ الأخذ بظواهر القرآن والسُنَّة شركٌ وكُفر!![1]

إلى هذا المنحَدَر انحَدَر كثيرٌ من النَّاس إلى أنَّهم لا يعتقدون أنَّ في كتاب اللَّه الهداية الكاملة فلا يعتمدون في عقائدِهم على قال اللَّهُ ولا على قال رسول اللَّه ﷺ، يعتقدون فلسفةَ اليونان ومنطِقَهم ويُسَمُّونها بالمعقولات! ويُحَرِّفُون كتابَ اللَّه لأجل هذه الفلسفة الجاهليَّة التي غَزَتْنَا من الغرب!

كثيرٌ من النَّاس يتصوَّر أنَّ الغزو الفكري جاء في هذه القرون المتأخرة؛ بل إنَّ الغزو الفكري جاء من القرون المتقدِمَّة يوم أُوذيَ أَحمد بنُ حنبل وإخوانُه من أهل الحق وضُرِبُوا وقُتِلَ بعضُهم من ذلكم الوقت بل وقبله صَدَمَ هذا الغزو الأُمَّة في أصلِ أُصُولها من ذلكم الوقت، وانتشرت الفلسفات وتصوُّف المجوس والرهبان وغيرِهم من ذلكم الوقت؛ فلم يأت الغزو الحديث إلا مكملًا للغزو السابق!!

إن الفِرَق الضَّالة التي أَخبر عنها رسولُ اللَّه - عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام - وأنَّها كلَّها في النَّار إلَّا ما كان عليه رسولُ اللَّه وأصحابُه هذه الفِرَق بدأت من آواخر عصر الصَّحابة ﷺ ثم انتشرت وتفَشَّت في المجتمعات الإسلاميَّة حتَّى صار أكثر المسلمين لا يخرجون عن هذه الفِرَق، وقَلَّ من هو على ما كان عليه رسولُ اللَّه وأصحابُه وهم الطَّائفة النَّاجية والمنصورة.

والآن في هذا الوقت بعد متاهاتٍ طويلة تاه فيها كثير من المسلمين تنتشر فكرة العودة إلى منهج السَّلفِ الصَّالح، وبوُسعِ كُلِّ مسلم طالب للحق قد تسلح بالعلم أن يُمَيِّزَ بين الحقِّ والباطل، وأن يُدرِكَ ما كان عليه رسولُ اللَّه وأصحابُه، وما عليه هذه الفِرَق التي حكم عليها رسولُ اللَّه ﷺ أنَّها في النَّار؛ «**افْتَرَقَتِ اليَهُودُ إِلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَة، وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى إِلى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَة، وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الأُمَّة إِلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَة**

---

(١) قال الصاوي في حاشيته على تفسير الجلالين عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ «الكهف: ٢٣ - ٢٤]: «ولا يجوز تقليد ما عدا المذاهب الأربعة، ولو وافق قول الصحابة والحديث الصحيح والآية!! فالخارج عن المذاهب الأربعة ضال مُضِلٌّ، وربما أداه ذلك للكفر، لأن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر!!!». وانظر الرد عليه في تفسير الإمام محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ عند قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

كُلُّهَا في النَّار إِلَّا وَاحِدَة، قَالُوا: مَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّه ؟ قَالَ: مَنْ كَانَ عَلَى مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي »[1]، أمَّا الذين يُؤمنون بهذا الحديث وهو حديثٌ صحيح؛ فهم يَبُثُّونَه في النَّاس ويُحَذِّرُون المسلمين من الهلاك ويَهتِفُونَ بِهم إلى ما كان عليه رسولُ اللَّه وأصحابُه.

وأمَّا أهلُ الأهواء فإنَّهم يتأولون هذا الحديثَ وإمَّا يدَّعون أنَّه ضعيف لماذا ؟ لأنَّه يبِّين ما عندهم من الضَّلال، ويشهد عليهم بالهلاك، ولكن لهم مصالح في هذا التَفَرُّق! لهم أتباع يحتَفُّونَ بهم ويُشيدُونَ بمكانَتِهم! فحفاظًا على هذه المكانة وعلى المصالح الماديَّة يُنكرون هذا الحديث ليبقى لهم جاهُهُم! أو يُؤوِّلُونه حتى يَبقَوا على ما هم عليه من الانحراف!، وحتى لا يتَّضح هذا الحديث فيفضحهم ؛ فيقول لهم الشباب أين أنتم من الفِرقَة النَّاجية؟ ولماذا تَتَمَادَوْنَ في ميادين الضَّلال؟ ولماذا تكونون من هذه الفِرَق الهالكة؟ فيأتون بمثل تلك التأويلات وبمثل تلك التحايلات؛ حتى تبقى غالبية الأُمَّةُ سادرةً في غيِّها بعيدةً عن منهج اللَّه؛ لأنَّ هؤلاء دعاةُ الضَّلال لا يعيشون إلَّا في الظَّلام، لا يعيشون إلا في دَوَّامَة المغالطات!

فيا إخوتاه! يجب أن ننتهي، وأن نَضَعَ حدًّا للانقياد لهذه المغالطات، وأن نقول للمحسن: أحسنت وللمسيء أسأت، ونقول لِلمُحِقِّ: أنت مُحِق؛ لأنَّ كتاب اللَّه معك وسنة رسول اللَّه ومنهج السَّلف الصالح؛ فأنت مُحِق ونقُولُ للمبطِل: أنت مُبطِل وأنت على باطل، وأنت تقود الأُمَّةَ إلى الهلاك والدَّمَار؛ فإلى متى ننقاد لأمثال هؤلاء يا أيُّها المسلمون وكتاب اللَّه بين أيديكم، وسُنَّةُ رسول اللَّه ﷺ بين أيديكم، وتفاسير السَّلف بين أيديكم، وعقائد السَّلف بين أيديكم؟! السَّلف الصالح الذين قال اللَّه في شأنهم: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، أجل واللَّه الذي ينحرف في عقائدِه وفي مناهجِ حياتِه عن كتاب اللَّه وسُنَّة رسول اللَّه ﷺ فإنَّه مُشَاق للرَّسول - عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام - ، وإنَّه مُتبع لغير سبيل المؤمنين، و سبيل المؤمنين من الصَّحابة والتابعين لهم بإحسان ومن أئمَّة

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٣٢) وأبو داود (٤٥٩٦) والترمذي في الإيمان حديث (٢٦٤٠) من حديث أبي هريرة، وقال: حديث حسن صحيح، وقال: وفي الباب عن سعد وعبد اللَّه بن عمرو وعوف بن مالك.

الهُدَى رضوان اللَّه على الجميع هم المقياس للحق، وسبيلهم مقياس يُميِّز بين الحقِّ والباطل، وواللَّهِ ما كان سبيلُهم ما كان منهاجُهم إلَّا كتاب اللَّه وسُنَّة رسول اللَّه -عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام-.

فيا إخوتاه! كفانا أن تنطلي علينا الخُدَع وألاعيب المخادعين ومغالطات المغالطين، كتاب اللَّه بين أيدينا وسُنَّة رسول اللَّه ﷺ بين أيدينا، وبيانُها من رسول اللَّه واضح، وعقائد السَّلف واضحة ومنهجهم، وقد هيَّأ اللَّه لها فطُبِعَت ونُشِرَت فمثل هذه الكتب عندكم «البخاري» و«مسلم» وغيرهما من كتب السنة وعندكم «تفسير ابن جرير» وعندكم «تفسير ابن كثير» وعندكم «السنة لعبد اللَّه بن أحمد» وعندكم «السنة لأحمد» وعندكم«التوحيد لابن خزيمة» و«شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» للَّالكائي و«الإبانة الكبرى والصغرى» لابن بَطَّة و«الشريعة» للآجرِّي هذه هي التي تُمَثِّل سبيل المؤمنين تمثيلًا واضحًا لا غُبَارَ عليه.

فعلينا أن نَدرُسَ هذه الكتب حتى نعرف سبيلَ المؤمنين ويستبين لنا سبيلُ المجرمين من هذه الكتب، يستبين لنا سبيلُ المؤمنين ويُفضَح سبيلُ المجرمين، وما أكثر الطُّرق التي يمكن أن تُدَان بأنَّها على سبيل المجرمين.

إنَّ اللَّه -تبارك وتعالى- كما ذكرت آنفًا لم يجعل لنا أيَّ اختيار إذا جاء أمرُ اللَّه أو جاء أمر الرَّسول -عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام-، لا يَسَعُنا إلا الاتِّبَاع، ولا يَسَعُنا إلا الاحتكام في قضايا الاختلاف إلى اللَّه ورسوله ﷺ، ولن نكون مؤمنين أبدًا حق الإيمان إلا إذا حاكمنا قضايا الخلاف إلى اللَّه ورسولِه ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، يقول العلماء -علماء اللُّغة-: إنَّ هذا أقوى وأشد وأوكد أنواع القَسَم؛ لأنَّ العرب إذا أرادوا أن يُؤكِّدُوا القَسَم صَدَّرُوه بأداة النَّفي «لا» هذه وما شاكلها؛ فـ«لا» إذا أتى القَسَم بعدها، كانت لتأكيد القَسَم ﴿وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ كما في قوله ﷻ: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ١].

«لا» النَّافية والقَسَم بعظمة اللَّه وجلاله على عدم إيمان من لا يُحَكِّمُ رسولَ اللَّه حتى يُحَكِّمُوا رسولَ اللَّه، ولا يكفي هذا التحكيم أبدًا حتى تنشرح الصُّدُور بحُكم رسول اللَّه

- عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام - ، وترضى به وهذا لا يكفي حتى نسلِّم تسليمًا كاملًا لرسول اللَّه ﷺ، وأَكَّد الفعل «يُسَلِّمُوا» بالمصدر، تأكيداتٌ كثيرة: قَسَمٌ باللَّه بذاته العظيمة، أَكَّدَه بالقَسَم المؤَكَّد، أَكَّد الفعل بالمصدر، تأكيدات عظيمة على نفي إيمان من لا يُحَكِّم هذا الرَّسول الكريم ﷺ، فهل حَكَّمَ كثيرٌ من أهل الأهواء رسول اللَّه ﷺ فيما خالفوا فيه كتابَ اللَّه وسُنَّة رسول اللَّه ﷺ؟ كلَّا واللَّه لو حَكَّمُوا رسولَ اللَّه ﷺ لانتهت هذه الخلافات، ولقد أحالنا اللَّه على مليء وإنَّ فيه فَصلًا كاملًا للخلافات، وحُكمًا حَاسِمًا في قضايا الخلاف.

باللَّه عليكم! نأتي إلى قضيتين رَكَّز عليهما القرآن والسُنَّة جاءت فيهما نصوص كثيرة، نرى منهج السَّلف في جانب ونرى أهل الأهواء في جانب آخر، قد يشترك عشرات الفِرَق في بدعة من البدع وفي ضلالة من الضَّلالات وينشأ على هذه الضَّلالات أجيال وأجيال، وتُنشأ لها مدارس، ويبقى هؤلاء ثابتون على ما هم عليه من الضَّلال ومن المخالفة الواضحة لما جاء به محمَّد ﷺ كتابًا وسُنَّة.

ولابن الوزير اليماني في كتابه «إيثار الحق على الخلق» كلام جيِّد يُكتَب بماء الذَّهب - أرجو أن يفهمه كلُّ شاب وأن يحفظه -، قال وهو يناقش المعتزلة والأشعريَّة وغيرهم من الفِرَق التي حادت عن المنهج الإسلامي الحق، وعن القرآن والسُنَّة، - ما معناه - : «إنِّي لأتَعَجَّب ممن ينتمي إلى أهل السُنَّة أن يُنكِرَ صفة الرَّحمة - صفة رحمة اللَّه ﷻ - يؤولها بالإحسان ويَفرُّ من الرَّحمة لأنَّ الرحمة رِقَّة وضعف في نظره» قال: أَتَعَجَّب لهؤلاء، هذه الصِّفة التي وَرد ذكرها في القرآن في أكثر من خمسمائة موضع مُؤَكَّدة ومُكَرَّرة[1]، يشير إلى قاعدة أو قاعدتين عند النَّحويين والبلاغيين وهو أنَّ التكرَار يرفع

(١) قال رَحِمَهُ اللَّهُ (١/ ١٢٥ - ١٢٦): «وكرر اللَّه تعالى التمدح بالرحمة مرارًا جمة أكثر من خمسمائة مرة من كتابه الكريم منها باسمه الرحمن أكثر من مائة وستين مرة وباسمه الرحيم أكثر من مائتي مرة، وجمعهما للتأكيد مائة وست عشرة مرة، وأكد الرحيم فجمعه مرارًا مع التواب ومرارًا مع الرءوف، والرأفة أشد الرحمة ومرارًا مع الغفور وهي أكثر، عرفت منها سبعة وستين موضعًا، وأخبر أنه كتب على نفسه الرحمة مرتين، وأنه لا عاصم من أمره إلا من رحم، وأن من لم يرحمه يكون من الخاسرين، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم، وإنَّ النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم، وأنَّه ذو رحمة واسعة إلى غير ذلك من صيغ المبالغات القاضية بأنَّ ذلك من أحب الثناء والممادح والمحامد إليه ﷻ، وبالغت الملائكة الكرام في ممادح الرب سبحانه بذلك فأوردت أبلغ=

احتمال المجاز، والتأكيد كذلك يرفع احتمال المَجَاز، كيف ؟ اقرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ فيه تكرار وتأكيد في نفس الوقت الهدف منه إثبات صفة الرَّحمة للَّه - تبارك وتعالى- ما اكتفى باسم الرَّحمن أَكَّدَه بالرَّحيم، هذا عند العرب يثبت هذه الصِّفة ويرفع احتمال المجاز؛ لأنَّ فيه تأكيدًا وهذا الأسلوب أسلوب عربي، ذكر الرَّحمة ثمَّ أَكَّد بذكرها مرَّةً أخرى، هذا عند العرب يرفع احتمال المجازات.

كيف احتمال المجاز؟ يقولون لك: إنَّه إذا قال شخص: «جَاءَ زَيْدٌ، جَاءَ عَمْرو، جَاءَ بَكْرٌ، جَاءَ عَلِيٌّ» وَسَكَت، احتمل الحقيقة واحتمل المجاز، يحتمل أن يكون جاء بنفسه ويحتمل أن يكون أرسل رسولًا أو كتب كتابًا، لكن إذا قال: «جَاءَ زَيْدٌ جَاءَ زَيْدٌ» هذا يُسمُّونَه تأكيدًا لفظيًّا، ارتفع احتمال المجاز وثبتت الحقيقة وهو أنَّ زيدًا قد جاء فعلًا، ؛ وإذا أَكَّدَه تأكيدًا مَعنويًّا فقال: «جَاءَ زَيْدٌ نَفسُه» أو «جَاءَ زَيْدٌ عَينُه» ارتفع احتمال المجاز وثبتت الحقيقة، هذا الذي يشير إليه ابنُ الوزير في كتابه «إيثار الحق على الخلق».

طيِّب إذا قال اللَّه -تبارك وتعالى- في صَدرِ القُرآن ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ هذا يكفي لإثبات أنَّ للَّه هذه الصِّفة العظيمة صفة الرَّحمة، وتتبدَّد دعوى المجاز واحتمالات المجاز، إذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ تأكيد وتكرَار . . إذا صَدَّر كلَّ سورة من السُّور بـ«بِسْمِ اللَّه الرَّحمَن الرَّحِيم» إلَّا سورة براءة، إذا

= صيغ المبالغات فقالت: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ ، ومدح اللَّه ذاته الكريمة بهذه الصيغة البليغة فقال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ، وفي كتاب سليمان عليه السلام الذي حكاه اللَّه عنه في كتابه الكريم لشرفه العظيم: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ، وحكى اللَّه نحو ذلك في كتابه الكريم عن إبراهيم ويعقوب وموسى وأيوب وصالح وعيسى بن مريم عليهم السلام للدلالة على اتفاق الأديان النبوية الأولى والآخرة على مدح اللَّه تعالى بذلك وخاطب الأنبياء عليهم السلام بذلك الجفاة الأجلاف من المشركين ونحوهم ممن لا يفهم دقائق الكلام الصارفة إلى مقاصد أهله فقال الخليل عليه السلام في خطاب أبيه ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ۝ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ ، وقال هارون عليه السلام لعُبَّاد العجل ما ذكره اللَّه عنه ومدحه به حيث قال: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ ، وكتب ذلك سليمان إلى بلقيس وقومها وأمر اللَّه تعالى في كتابه الكريم بالفرح برحمته والفرح بها فرع التصديق بها فقال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ ، وفي عطفها على فضله دلالة على المغايرة بينهما وذلك خلاف ما يقول من تأولها» .

خَتَم كثيرًا من الآيات بصفة الرَّحمة والرَّأفة هل يبقى هناك مجال للتأويل أو للمجاز أو لشيءٍ من هذا؟!

أمَّا الذي يحتكم إلى اللَّه وإلى رسولِه فيكفيه نصٌّ واحد من هذه النُّصوص لإثبات هذه الصِّفة صفة الرَّحمة التي وَسِعَت كلَّ شيء، فهل رحمة الإنسان وَسِعَت كلَّ شيء ؟! رحمة الإنسان ما تَسَعُ نَفْسَه! ورحمة اللَّه وَسِعَت السَّموات والأرض والملائكة والجن والإنس... ؛ فهل هناك نظيرٌ لهذه الرَّحمة حتى نضطر إلى تأويلها أو تحريفها أو تعطيلها ؟! كلَّا واللَّه؛ فالمؤمن الصَّادق الذي يؤمن بكتاب اللَّه وسُنَّة الرَّسول يعتقد أنَّ لِله رحمةً وَسِعَت كلَّ شيء، وأنَّ كلَّ ما تراه من الخير في السَّموات والأرض وفي الدنيا والآخرة من آثار رحمة اللَّه -تبارك وتعالى- ، وكل ما تجده من الرَّحمة في قلوب النَّاس والحيوانات والملائكة وغيرها جزء واحد من مائة جزء من آثار رحمة اللَّه -تبارك وتعالى- ، فهل يلتبس في مثل هذه الصِّفة صفة المخلوق بصفة الخالق أو يتصور عاقل أن هناك مشابهة بين صفة الخالق والمخلوق حتى يضطر إلى التأويل؟!

أمَّا الذي يؤمن بصفات اللَّه -تبارك وتعالى- على هذا الوجه فإنَّه واللَّه لا يحتاج إلى تأويل ولا إلى تحريف، بل يضطر بسبب هذا التكرار الكثير لهذه الصِّفة العظيمة إلى التصديق والإيمان الجازم بأنها ممَّا مدح اللَّه به نفسه ويحبُّ أن يمدحه بها عبادُه، فما وصف اللَّه نفسه بأدنى أدنى شيء من النقص ولو مرَّةً واحدةً فضلًا عن تكرارها .

وأضرب لكم مثالًا : نَسَبَ اليهود إلى اللَّه الولد وقالوا : عزير ابن اللَّه، النَّصارى نَسَبُوا إلى اللَّه الولد وقالوا : عيسى ابن اللَّه، ونَسَبَ العرب الملائكة إلى اللَّه وقالوا : إنَّهم بنات اللَّه، ماذا قال اللَّه -تبارك وتعالى- ؟ ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٨٩ - ٩٣]، الشاهد أنَّ هذه الصِّفة فيها نَقص قال اللَّه فيها : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١- ٤] .

وكم نَحَى باللَّائمة على من ينسبون للَّه الولد فقال : ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ

﴿ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ١٥].

﴿جُزْءًا﴾ قالوا: عيسى ابن اللَّه، وقالوا: عزير ابن اللَّه، وقالوا: الملائكة بنات اللَّه ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾؛ أنكر اللَّه هذا أشدَّ الإنكار، لماذا؟ لأنَّ فيه تَنَقُّصًا للَّه -تبارك وتعالى-؛ فإذا كان يستنكر هذا -أي: نسبة الولد إليه- بهذا الأسلوب العظيم الفظيع، ونسبة الولد لغير اللَّه كمال ولكنَّه بالنسبة للَّه نقص فأنكره اللَّه أشدَّ الإنكار فكيف يمدح نَفْسَه بصفة فيها النَّقص ويكرِّره مئات المرَّات؟! كلَّا واللَّه، هذا مثالٌ واحد مما حاد أهلُ الأهواء عن الاحتكام إلى اللَّه فيه، ويُضَلِّلُون السَّلف وفيهم الصَّحابة وفيهم الرَّسول ﷺ، ويقولون للذي يؤمن بهذه الصِّفة مجسِّم مشبِّه مع الأسف الشَّديد! وقد يُكفِّرون من يُثبت للَّه هذه الصِّفة!

يأتيك مثل آخر: اللَّه -تبارك وتعالى- مَدَح نَفْسَه بأنَّه استوى على العرش في سبع آيات في القرآن صريحة في الاستواء على العرش، و الآيات: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]، ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥]، في عشرين نوع من الأنواع تجمع عددًا من النُّصوص تثبت عُلُو اللَّه -تبارك وتعالى- بالإضافة إلى أدلَّة الفطرة و إلى أدلَّة العقل، كلُّ هذه الأشياء تتواكب بإثبات هذا الوصف للَّه -تبارك وتعالى-، فيأتي كثيرٌ من الفِرَق المنحرفة عن القرآن والسُّنَّة وعما كان عليه السَّلف الصالح.

يروي البخاري والبيهقي[1] وغيرهم عن الأوزاعي أنَّه قال: «كُنَّا والتابعون متوافرون نقول: إنَّ اللَّه -تبارك وتعالى- في السَّماء وعلى العرش استوى».

التابعون متوافرون يقولون هذا هذه عقيدة التابعين، والتابعون أخذوها من الصَّحابة، والصَّحابة أخذوها من فِي رسول[2] اللَّه - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام - ومن القرآن والسُّنَّة.

---

(١) في كتابه «الأسماء والصفات» ونقله عنه الذهبي في «العلو للعلي الغفار» وقال: إسناده جيِّد، ونقله ابن القيِّم في «اجتماع الجيوش الإسلامية» (ص ٦٨) وقال: إسناده صحيح، وجوَّد إسناده الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١٣/ ٤٥٠).

(٢) قال عباد بن العوام: قدم علينا شريك بن عبد اللَّه مذ نحو من خمسين سنة فقلنا له: يا أبا عبد اللَّه إن عندنا=

وجاء الجهم بن صفوان وقال: إنَّ اللَّه في كلِّ مكان، وجاء ناسٌ آخرون وأغرقوا في الضَّلال فقالوا: إنَّ اللَّه لا فوق ولا تحت ولا يمين ولا يسار ولا داخل العالَم ولا خارجَه ...! وهذه الصِّفات لا تنطبق إلا على المعدوم - وَالعِيَاذُ بِاللَّه - ؛ فهذه السَّلبيات الكثيرة التي أنكروا بها وجود اللَّه -تبارك وتعالى- من حيث لا يدرون؛ لأنَّهم وإن كانوا يؤمنون بوجود اللَّه إلَّا أنَّهم وصفوه بصفات العدم؛ بل يقولون وصفوه بوصف المستحيلات لا بصفات العدم!

باللَّه عليكم! هؤلاء لو كانوا يَنشُدُون الحق واللَّه لوجدوه في كتاب اللَّه، ووجدوه في سُنَّة رسول اللَّه ﷺ، ووجدوه في تفسير أمناء وسادة وفقهاء هذه الأُمَّة؛ فالذي يقرأ في «تفسير ابن جرير» و«تفسير البغوي» و«تفسير ابن كثير» يجد النُّقول بالأسانيد الثابتة إلى رسول اللَّه ﷺ وإلى صحابته الكرام رضي الله عنهم وإلى أئمَّة التابعين في إثبات هذه الصِّفات.

وألَّف البخاري كتابًا سمَّاه «خلق أفعال العباد» يثبت فيه صفات اللَّه -تبارك وتعالى-، وأنَّ القرآن كلام اللَّه ﷻ، وينقل كلام السَّلف فيمن ينكر علو اللَّه -تبارك وتعالى- ، بل ينقل تكفيرَه ويقول: إنَّني أتعجب ممن يشك في كفر الجهمية[1]! لماذا يُكَفِّرُهُم ؟ لأنَّهم عطَّلوا صفة العلو للَّه -تبارك وتعالى- وعطَّلوا غيرها.

ولكنَّه يأتي على رأس قائمة هذه الصِّفات إنكار صفة علو اللَّه؛ فكانوا إذا كَفَّرُوا جهمًا إنما يُكَفِّرُونَه لأنَّه أنكر علوَّ اللَّه واستواءه على عرشه، وتجد كثيرًا من المدارس التي تنتمي إلى السُّنَّة على هذا المذهب الجهمي الضَّال! ويقرءون كتب التفسير وكتب الحديث وكتب العقائد؛ كتب عقائد الأئمَّة المعتبرين عند الأُمَّة حتى إنَّ هؤلاء لَيُسَلِّمون بعدالة وجلالة هؤلاء الأئمَّة الذين نقلوا لنا عقائد السَّلف التي كان عليها رسول اللَّه ﷺ وصحابته الكرام رضي الله عنهم!

= قومًا من المعتزلة ينكرون هذه الأحاديث: «أن اللَّه ينزل إلى السَّماء الدنيا»، و«أنَّ أهل الجنة يرون ربَّهم»، فحدِّثني شريك بنحو من عشرة أحاديث في هذا ثم قال: أمَّا نحن فأخذنا ديننا عن أبناء التابعين عن الصحابة فهم عمن أخذوا؟! وقد صححه الألباني رحمه الله في كتاب «مختصر العلو للعليِّ الغفار».

(١) قال أبو عبد اللَّه - البخاري - : «نظرت في كلام اليهود والنصارى والمجوس فما رأيت أضل في كفرهم منهم وإني لأستجهل من لا يكفرهم إلا من لا يعرف كفرهم». «خلق أفعال العباد».

يا إخوتاه! هذان مثلان من أمثلة كثيرة جدًّا تاهت فيها كثيرٌ من الفِرَق وهذه الفِرَق - مع الأسف - يوجد فيمن ينتمي إلى السُّنَّة من يدافع عن هذا الضَّلال، ويرى أنَّ الأُمَّة تجتمع يكفيها أن تجتمع على عِلَّاتِها، حتى الرَّوافض يدخلون في هذا التجمع، وغلاة الصُّوفية يدخلون في هذا التجمع، ويريدون أن يجمعوا الأُمَّة على الباطل، ويرون أنَّ هذا التجمع يكفي الأُمَّة، ويضمن لها عِزَّتَها وسعادتَها ونجاتَها في الدُّنيا والآخرة!

وليس واللَّهِ هذا هو طريق الإصلاح، طريق الإصلاح الذي دعا إليه كتاب اللَّه وسُنَّة رسول اللَّه ﷺ وسَلَفُنَا الصَّالح: هو أن نُثَبِّتَ النَّاس على كتاب -تبارك وتعالى-، ونُمَسِّكَهم بكتاب اللَّه وبسُنَّة رسول اللَّه ﷺ، ونبذل كلَّ ما نستطيع من جهد في إنقاذ هذه الفِرَق الهالكة من ضلالها، ونحاول أن نعيدها إلى المنهج الحق وإلى ما كان عليه رسول اللَّه ﷺ وصحابته الكرام ﷺ؛ ذلكم الوصف الذي خصَّ به رسول اللَّه ﷺ تلكم الطَّائفة التي بقيت على ما كان عليه رسول اللَّه ﷺ.

فيا أيُّها الشَّباب! ابحثوا عن عقائد رسول اللَّه ﷺ، وعن سياسة رسول اللَّه ﷺ، وعن أخلاق رسول اللَّه ﷺ، وعن عبادة رسول اللَّه ﷺ؛ فالصَّحابة والخلفاء الرَّاشدون ﷺ ما كانوا إلَّا على هذا المنهج، وَتَمَسَّكُوا به وعَضُّوا عليه بالنَّواجذ، واحذروا البدع التي حَذَّر منها رسول اللَّه - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام -، وَحَذَّرَ منها سادة هذه الأُمَّة وخيارُها، ووَقَفوا للمبتدعين بالمرصاد يُفَنِّدُون ما عندهم من البدع، ويحَذِّرُون منهم، وحافَظُوا على كيان أهل السُّنَّة والجماعة قرونًا، ثم حصل الاسترخاء وحصل التراخي، وجاءت القرون التي قال فيها رسول اللَّه ﷺ بعد أن ذكر القرون المُفَضَّلَة: «. . . ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَهُمْ قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُون، وَيَخُونُونَ وَ لَا يُؤْتَمَنُون، وَيَنْذُرُونَ وَلَا يُوفُون وَيَظْهَرُ فِيهِم السِّمَن»[1] لمَّا جاء دور هؤلاء حصل منهم الاسترخاء؛ لأنَّهم لا يهتمون إلا بالدُّنيا إلَّا من عَصَمَه اللَّه وحَفِظَ من أفراد قليلين، فاختلط الحابل بالنَّابل وسادت البدع في المجتمعات الإسلامية -مع الأسف الشديد-، وسادت عبادة القبور، وساد الحلول ووحدة الوجود

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري ك/ الرقاق. باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها، برقم(٦٤٢٨)، ومسلم ك/ فضائل الصحابة. ، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، برقم (٢٥٣٥/ ٦٤٢٢).

والخرافات، حتى صارت مظاهر الشرك في المجتمعات الإسلامية أكثر مما يشاهده العاقل في بلدان اليهود والنَّصارى!

فكم - باللَّه - من قبر يُعبَد في أوربا وأمريكا؟! وكم - باللَّه - قَبرًا يُعبَد في بلاد اليهود؟! اعْدُدْ القبور المبثوثة في آفاق العالَم الإسلامي! تجد مساجد مليئة بالقبور رغم أنَّ رسول اللَّه ﷺ لَعَن أَشَدَّ اللَّعن وحَذَّرَ أَشَدَّ التحذير من اتخاذ القبور مساجد فقال ﷺ: «**اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّه عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا القُبُورَ مَسَاجِد**»[1]، «**لَعْنَةُ اللَّه عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورُ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِد**»[2]، الحديث في الصحيحين من رواية عائشة وابن عباس رضي اللَّه عنهما، وقال تعليقًا على هذا الحديث «يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا»، يعني يحذِّر هذه الأُمَّة ما صنعت اليهود والنَّصارى.

اليهود والنَّصارى يكرمون الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ويحتفون بهم كثيرًا ويُعَظِّمونهم، ومن هذا المنطلق بَنَوْا عليهم وجعلوا قبورَهم مساجد، فماذا استحقوا من اللَّه -تبارك وتعالى- ؟ استحقوا من اللَّه الغضب واستحقوا من اللَّه اللَّعن، فمن يفعل فِعْلَهم ماذا يستحق من اللَّه؟ يستحق أشدَّ منهم! من اللَّعن والمقت والغضب.

هذه النصوص في الصحيحين وفي غيرها والمسلمون يقرءون الصحيحين للبركة! وقد يقرءون الصحيحين عند هذه القبور في المساجد ولا يتصوَّرون أبدًا أنَّ هذا التحذير يتناولهم قبل اليهود والنَّصارى! وأنَّ هذا اللَّعن قد يَنصَبُّ عليهم أكثر مما ينصب على اليهود والنَّصارى! أجل - واللَّهِ - يقرءون «البخاري» و «مسلم» للبركة في مساجد تشاد فيها القبور! فماذا يستحقون من اللَّه؟ هذه القبور ماذا يصنع عندها؟ - واللَّه - يُطَاف بها ويُركَع لها، ويُسجَد لها، وتُحَب أكثر من اللَّه، وتُخشَى أكثر من اللَّه -تبارك وتعالى- ، وتُقَدَّم لها

---

(١) رواه مالك في (الموطأ) برقم (٤٦٦) [٥/ ١٧٥ - التمهيد) عن عطاء بن يسار مرسلًا، وعبد الرزاق (١/ ١٠٦) وابن أبي شيبة (٣/ ٣٤٥) عن زيد بن أسلم مرسلًا كذلك، ووصله أحمد (١٣/ ٨٦) وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه ولفظه: «**اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا، لَعَنَ اللَّهُ قَوْمًا اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِد**» وجزؤه الأول حسن وجزؤه الثاني صحيح.

(٢) متفق عليه: (خ/ ٤٤٣٤/ ٤٤٤٤). ك/ المغازي، باب مرض النبي ﷺ وفاته، (م/ ٥٣١/ ١١٨٧) ك/ الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد.

القرابين أكثر مما تُقَدَّم للَّه -تبارك وتعالى- هذا هو الحاصل، ويُحلَف بها، ويجرؤ كثيرٌ من المتعلقين بهذه القبور أن يحلف باللَّه كاذبًا ولكن لا يجرؤ أن يحلف بهذا الولي؛ لأنَّه يعتقد فيه أنه يبطش به أكثر مما يبطش اللَّه به! هذا شيء موجود وشيء ملموس.

ونحن - واللَّه - شاهدنا بهذه الأعين وعندنا الشهود العدول، رأينا الطواف حول هذه القبور والركوع والسجود والبكاء - واللَّه - كأنَّني الآن أشهد منظرًا فظيعًا جِدًّا؛ دخلنا مسجدًا فيه خمسة قبور في - دلهي - بقرب مركز جماعة التبليغ ما بينها وبينه إلا بضعة أمتار! وجاء شخص صاحب وفرة عليه إزار ورداء بصفة الإحرام؛ بل هو محرم لهذه القبور، وأتى إلى أكبر هذه القبور - قبر نظام الدِّين - وخرَّ - واللَّه - له ساجدًا! وسجد طويلًا طويلًا! ثم قام يمشي إلى الوراء حتى وصل إلى عَتَبَة القُبَّة ثم خرَّ ساجدًا مرَّةً أخرى! ونحن مشدوهون - أنا وعبد الرَّزاق ابن الشيخ عبد المحسن العباد وعبد الرَّب نَوَّاب - من هذه المناظر المفظعة المخزية، فجاءنا رجل يهدر كالجمل لا ندري ماذا يقول يصيح علينا بالأوردية، فسألنا عبد الرَّب نوَّاب: ماذا يقول هذا؟ قال: يستنكر وقوفنا كيف تتفرَّجون والنَّاس في عبادة؟!، لماذا لا تعبدون؟ العبادة لهذه القبور!

هذا له أمثال لا حصر لها ولا عد في حياة المسلمين، تقوم بعض الدعوات، وتنتشر في مشارق الأرض ومغاربها ولا تنكر من هذا شيئًا، ويربتون على أكتاف هؤلاء القبوريين، ويقولون لهم: أنتم مسلمون، وتعالَوا نجتمع ضد اليهود والنَّصارى، كانوا يجمعون النَّاس باسم محاربة الاستعمار، والاستعمار قد خرج من مصر، وخرج من السُّودان، وخرج من دول المغرب، وخرج من باكستان، وخرج حتى من الهند، هذه اللعبة التي يضحكون بها على عقول النَّاس؛ فباكستان تحرَّرت أصبحت دولة إسلامية، فكأنَّما تفرغ جل أهلها لعبادة القبور وتشييدها! وأقوى الدَّعوات قائمة فيها، دعوات سياسية أو صوفية والسلفيون قلة، وإذا جاءت الانتخابات تذهب هذه الجماعات السياسية ليضعوا الزهور على هذه القبور ليكسبوا الأصوات! والسياسيون أو دعاة الصوفية والخرافة يشاركون الطائفين بهذه القبور باسم الحكمة في الدَّعوة! ولا ينكرون من هذا شيئًا، ولا يغيِّرون منه شيئًا، وهو - واللَّه - شرك يفوق شرك أبي جهل!

زرت - بنقلاديش - فجاءني أحد خرَّيجي الجامعة الإسلامية وقال: لأطوفنَّ بك

الليلة على اثني عشر قبرًا ترى فيها مشاهد فظيعة ما رأت عيناك مثلها؛ فذهبنا وكان المشوار طويلًا فجئنا إلى مسجد فيه قبر عليه مقصورة من أفخر أنواع الخشب، والعشرات من الناس مُجندَلين صرعى حول القبور باكين خاشعين، وهذا راكع وهذا ساجد، و السُّوق حول هذا المسجد قائم لشراء الزهور والنذور والخرافات . . . !.

ورأيت منظرًا آخر مُفظعًا - مع الأسف الشديد - فقلت - واللَّهِ - : لو رأى أبو جهل هذه المناظر لخجل منها! ما كانت قريش تفعل هذا؛ ما كانوا يصلون إلى هذا المنحدر السَّخيف السَّحيق، هذا يفعله أناس يقولون: إنَّهم مسلمون؛ في بلد ما في الهند بالذات في - حيدر آباد - رأيت قبرًا على حافة الطريق يقابله تمامًا وثن للَّهنادك، هذا الوثن يمرُّ به الوثنيون يقولون هكذا، أي يسلِّمون وينصرفون، أمَّا القبر فبُنِيَت عليه قُبَّة وعليه تابوت مجلَّل بالحرير والبخور من أفخر أنواع البخور من العود الغالي يتصاعد، والنَّاس عاكفون خاشعون حول هذا القبر، قلنا لهم: هؤلاء ماذا يقولون للوثنيين؟! إلى ماذا سيدعون؟! ما هو الإسلام الذي سيدعون إليه؟! سيجيبونهم: واللَّه أنتم تعبدون الأوثان أكثر منَّا! أنتم وثنيون غارقون في الوثنية أكثر منَّا! . . .

وشيءٌ كثير وكثير ودعوات تقوم لا تحرِّك أيَّ ساكن من هذا الوباء.

ونحن إذا استعرضنا القرآن الكريم نجد دعوات الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- أوَّلَ ما تتجه إلى محاربة هذا اللَّون من الشرك باللَّه قبل الانحراف الذي يزعم محاربته السياسيون! وقبل غيره من الانحرافات، أوَّل ما يبدءون به من الإصلاحات في عقائد النَّاس وفي دين النَّاس وفي حياة النَّاس هو محاربة الشرك الذي يعيش عليه كثيرٌ من المسلمين.

والأحزاب الإسلامية والتكتلات الإسلامية لا تمس هذا الشرك وهذا الضَّلال وهذه الخرافات لا من قريب ولا من بعيد، كانوا في السَّابق يجمعون النَّاس لمواجهة الاستعمار، وقد خرج الاستعمار العسكري، والآن يضربون للنَّاس على هذا الوَتَر والنَّاس أغبياء في غاية الغباء وفي غاية البلادة؛ حتى لو جاءوا إلى بلاد التوحيد يقولون لهم: نحارب الاستعمار، بلاد ليس فيها استعمار ولا فيها شيء وأهلُها أهل توحيد!!

يخرِّبون عقائدَهم ويفسدونها باسم محاربة الاستعمار! والنَّاس ما يدركون هذه الألاعيب وهذه الحيل وتنطلي عليهم؛ فيتيه كثير من شبابنا ويصبح مستخفًّا بعقائد التوحيد وبدعوة التوحيد وبالدَّعوة إلى هذا المنهج وإلى طريق الطائفة النَّاجية؛ هذه دعوة مسكينة، يقولون عنها: الشرك... بدعة، الشرك... بدعة.

إي واللَّه؛ الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- كلُّهم جاءوا يقولون: الشرك ... بدعة، نوح عليه السلام لبث ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعو إلى التوحيد ويحارب الشرك، ونحن نحارب الشرك ونحارب البدع ونحارب الضَّلالات على المنهج السَّلفي، ونريد لهؤلاء أحلاس القبور أن يرفعوا راية التوحيد ويخرجوا من هذه الدوَّامة.

وتجد الكثير من الدَّعوات تقاومك، ليتها تسكت وتمشي في طريقها وتترك لك المجال فسيحًا لتنقذ بإذن اللَّه هؤلاء الهالكين الذين شهد عليهم رسول اللَّه ﷺ بالهلاك، ليتهم يشتغلون بالاستعمار الخيالي! ويفعلون ما يريدون، ويتركون المجال مفتوحًا أمام من يريد هداية هذه الأُمَّة إلى التوحيد وإلى منهج الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وإلى دعوة الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام أجمعين-.

ونقول مرَّة أخرى: قال اللَّه تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٥]، فكان رسول اللَّه ﷺ يحذِّر من البدع وليس ثمَّة بدع، وفي زماننا آلاف البدع تنتشر وعلى رأسها تعطيل صفات اللَّه وأسمائه، وعلى رأسها عبادة القبور، وعلى رأسها خرافات لا أوَّلَ لها ولا آخر، فكيف يُستَكثَر على من يحارب البدعة بالأخذ والرَّد فيها؟!

وأنت تجد جُلَّ خُطَب رسول اللَّه ﷺ أو كلَّها يفتتحها بقوله ﷺ: «**أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الحَدِيثِ كَلَامُ اللَّهِ وَخَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتِهَا وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»[1]، - واللَّه - ما كان يومئذ مبتدعة؛ لكن لماذا كان رسول اللَّه ﷺ

(١) متفق عليه: (خ/ ٤٤٣٤/ ٤٤٤٤). ك/ المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، (م/ ٥٣١/ ١١٨٧) ك/ الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد.

يُكَرِّرُ ويؤَكِّد وفي كلِّ خُطَبه يقول هذا الكلام؟ - واللَّهِ - لأنَّ البدع شرُّ الأمور، لماذا؟ لأنَّ هذا المبتدع مُستَدرِك على اللَّه -تبارك وتعالى- قال اللَّه ﷻ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]؛ لأنَّ هذا العمل المُبتَدَع لا يقبله اللَّه - حتى لو كان صلاةً ما دامت مُبتَدَعةً -.

ومن ذلك صلاة الرغائب، فقد قال العلماء فيها منهم ابنُ الصلاح والنَّووي وابن عبد السلام وابن تيمية وأبو شامة، قالوا: إنَّ هذه من أخبث البدع، وهي صلاة وقراءة قرآن، لماذا؟ لأنَّ رسول اللَّه ﷺ ما شرع هذه الصَّلاة، ونحن لا نعبد إلَّا اللَّه، ولا نعبده إلا بما شرع على لسان محمد ﷺ.

فإذا جاء إنسان كائنًا من كان يشرع لنا عبادة غير ما جاء به محمد - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام - فإنها تكون بدعة، وتكون ضلالة، وتكون شرًّا؛ لأنَّ هذا الدِّين كامل لا يحتاج إلى من يضيف إليه جديدًا أبدًا؛ قال اللَّه ﷻ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] فهذه البدع، هذه القبور هذه الشركيات كانت الشغل الشاغل للأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- جميعًا على مدار التاريخ.

- واللَّهِ - إنَّ رسول اللَّه - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام - كان يبعث إلى تسوية القبور وإلى هدم الصُّوَر[1] في آنٍ واحد - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام -.

وفي مرض موته - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام - في آخر لحظات حياته يغطي رأسه بخميصة كما قالت عائشة وابن عباس ﷺ: فإذا اغتمَّ بها كشفها ويقول ﷺ: «**لَعْنَةُ اللَّه عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِد**»[2].

وقبل أن يموت بخمس كما في صحيح مسلم[3] عن جندب بن عبد اللَّه البجلي ﷺ

---

(١) إشارة إلى ما أخرجه مسلم ك/ الجنائز، باب الأمر بتسوية القبور، برقم(٩٦٩/ ٢٢٤٠، ٢٢٤١) من حديث أبي الهيَّاج الأسدي قال: قال لي عليُّ بن أبي طالب ﷺ: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول اللَّه ﷺ: «**أَلَّا تَدَعَ تِمْثَالًا وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيته**» وفي رواية: «... **وَلَا صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا**».

(٢) سبق تخريجه (ص ١٣٦).

(٣) ك/ المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها، برقم (٩٣٢/ ١١٨٨).

أنَّ رسول اللَّه - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام - قال: «إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، أَلَا وَإِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللَّه، وَلَوْ كُنْتُ مُتَخِذًا أَحَدًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ؛ أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا القُبُورَ مَسَاجِدْ فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»، يخاف رسول اللَّه ﷺ أنْ يُتَّخَذَ قبرُه مسجدًا وفهموا أنه يُحذِّر وكان يقول في حياته ﷺ «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا وَلَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا وَصَلُّوا عَلَيَّ حَيْثُمَا كُنْتُمْ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي»[1] قالت عائشة ﵂: «وَلَوْلَا ذلكَ لأُبرِزَ قبرُه غير أَنَّه خُشِيَ أن يُتخَذَ قبرُه مسجدًا»، فاجتهدوا أين يدفنوه، فإذا دفنوه في البقيع اتُّخِذ قبرُه مسجدًا، أين يذهبون إذن؟ قالوا: ندفنه في بيته، اهتدوا إلى هذا، وفيها نظر أيضًا ولكنَّها أدنى المفاسد؛ لأنَّ رسول اللَّه ﷺ كان قد نهى عن البناء على القبور، ونهى عن تجصيص القبور[2] - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام - ، ونهى عن الصلاة إلى القبور[3]، فوجدوا أحوط شيء أن يُدفَن في هذا البيت - صَلَوَاتُ اللَّه وَسَلَامُهُ عَلَيْه - من أن تفتتن الأمَّة.

وبعد دفنه ﷺ ما كان الصحابة يقربون هذا القبر؛ أولًا: لأنَّه نهاهم أن يتخذوا قبره عيدًا، وثانيًا: لأنَّ عائشة ﵂ كانت تسكن في هذه الحجرة إلى غاية عام ثمان وخمسين، ماذا صنعوا بعد موت الصحابة - رِضْوَانُ اللَّه عَلَيْهِمْ - ؟وانظر ماذا يصنع المسلمون الآن عند قبر الرَّسول - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام ! - ، جاء الوليد بن عبد الملك وكان ملِكًا جَبَّارًا، وكان مُغرَمًا ببناء المساجد وغيرها، وأراد أن يُوسِّع مسجد الرَّسول الكريم - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام - فقال: اشتروا حُجُرَات النَّبي ﷺ، وأدخلوها في المسجد فبكى بعض التابعين لهذا التصرُّف - الصحابة قد انقرضوا فلم يبق إلا بعض صغارهم - أرادوا أن يبقى قبر الرَّسول ﷺ على وضعه، ولكن هذا الرَّجل فرض رأيه، وأُدْخِلَت الحُجُرَات بأمره في المسجد، و كان قائمًا على هذا العمل عمر بن عبد العزيز فبنى عليه بناءً مُثلثًا

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في (سننه) ك/ المناسك، باب زيارة القبور برقم (٢٠٤٢) وأحمد (٢/ ٣٦٧).

(٢) أخرجه مسلم ك/ الجنائز. باب النهي عن تجصيص القبر والبناء عليه برقم (٩٧٠/ ٢٢٤٢) من حديث جابر ﵁ ولفظه: «نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُجَصَّصَ القَبْرُ وَأَنْ يُقْعَدَ عَلَيْه وَأَنْ يُبْنَى عَلَيْه».

(٣) أخرجه مسلم ك/ الجنائز، باب النهي عن الجلوس على القبر والصلاة عليه برقم (٩٧٢/ ٢٢٤٧) من حديث أبي مرثد الغنوي ﵁. ولفظه: «لَا تَجْلِسُوا عَلَى القُبُورِ وَلَا تُصَلُّوا إِلَيْهَا».

حتى لا يمكن استقبال القبر، يَحْسِم به الفتنة في حدود طاقته.

ثم جاء عصر المماليك وبنوا هذه القُبَّة التي تشاهدونها، - واللَّه - هذا ليس عمل الرَّسول ﷺ، ولا أَمَرَ به، ولا يرضاه، ولا من عمل الصَّحابة، وقد اجتهدوا غاية الاجتهاد في درء الفتنة - رِضْوَانُ اللَّه عَلَيْهِمْ - ، ولكن - مع الأسف - حصل ما حصل، وقبل ذلك شُيِّدَت القبور على أيدي الرَّوافض.

أمَّا أهل السنَّة ما كانوا يعرفون البناء على القبور، إنَّما ابتدع هذه البدعة الرَّوافض، ثم ورثها منهم باطنية الصوفية الذين ظاهرهم التصوُّف والتسنن وفي باطنهم زندقة وإلحاد ورفض - مع الأسف الشديد - ، فهؤلاء تتَّبعوا القبور وبنوا عليها وشيَّدوها وشدُّوا الرِّحال إليها، وأقاموا الاحتفالات والأعياد . . . إلى آخر الأباطيل والضَّلالات التي يعيشها أكثر المسلمين اليوم، كلُّ ذلك تسرَّب إليهم عن طريق الرَّوافض العُبيديين الذين قال فيهم علماء الإسلام: ظاهرهم الرَّفض وباطنهم الكفر المحض هؤلاء هم الذين سَنُّوا هذه السنَّة الخبيثة.

ثم بعد ذلك انتشرت عبادة القبور وتشييد القبور على أيدي الصوفية في العالَم الإسلامي؛ حتى هذه الجزيرة انتشرت فيها القبور، وعبادة القبور، والذَّبح للقبور، وشد الرِّحال إليها، والحلف بها، والاستغاثة بها . . . ، إلى آخر ما تشاهده الآن في البلدان الأخرى؛ ولكن اللَّه -تبارك وتعالى- طَهَّرَ هذا البلد على أيدي حملة لواء الدَّعوة السلفية، الشيخ محمد بن عبد الوهاب وتلاميذه وإخوانه الذين اجتهدوا وجاهدوا في إقامة العقيدة، وفي إقامة شريعة اللَّه المتكاملة، وكانوا إذا دخلوا بلدًا فيه قبور هدموا تلك القبور تنفيذًا لأمر رسول اللَّه - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام - الذي كان يبغض رفع القبور والبناء عليها وبناء المساجد عليها أشدَّ البغض، ويلعن في ذلك -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام-؛ فكانوا يُنَفِّذون رغبةَ رسول اللَّه ﷺ وأوامرَه وتوجيهاتِه في هدم هذه القبور، وقد هدموا قبورًا ما رأيتموها، ولعلَّ من تقادم بهم السِّن يكونون قد شاهدوا هذه المقابر التي هُدِمَت.

فأنتم الآن يا شباب الإسلام تعيشون تحت راية التوحيد، فعليكم أن تحافظوا على هذه النِّعمة، وأن تدرسوا كتب السَّلف، وأن تدرسوا كتب شيخ الإسلام ابنِ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ

وكتب الدَّعوة السَّلفية كتب الشيخ محمد بن عبد الوهاب وتلاميذه ومدرسته القائمة على الإسلام الحق، والقائمة على المنهج السَّلفي الصحيح التي شوَّهها أعداء التوحيد المنافحون عن الشرك، والمنافحون عن البدع، فأوسعوا هؤلاء ظلمًا ورموهم بهتًا بأنهم كذا وبأنهم كذا حتى جعلوا من علاماتهم أنهم يبغضون رسول اللَّه ﷺ! وكذبوا؛ فلا يُحبُّ رسول اللَّه ﷺ إلا من يأخذ بكتاب اللَّه وسُنَّة رسول اللَّه ﷺ في عقيدته وفي عبادته وفي تعامله وفي سيرته وفي أخلاقه، هذا الذي يحبُّ رسولَ اللَّه - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ - كما قال ﷻ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، ونحن واللَّه نؤمن أنَّ رسولَ اللَّه ﷺ أفضلُ الخلق.

لقد سألني سائل، وهو معي في السيارة في أثناء الطريق قال: يا شيخ! قلت: نعم، قال: ما رأيك في الصَّلاة على النَّبي ﷺ؟ وكان قد مر عليه ثلاث سنين وهو يرى منهج هذه الجامعة وأنَّه قائم على الكتاب والسنَّة، وأنَّه على منهج السَّلف الصالح، وعلى حُبِّ الرَّسول ﷺ الحب الذي لا نظير له؛ بل يرى المنصف الحبَّ على غير هذا المنهج دعاوى فارغة وأنَّ الحبَّ الحقيقي إنما يتمثل عند حملة هذا المنهج، أقول: فصُدِمْت من سؤاله وكدت أن أُصرَع، فقلت: أمَا تتقي اللَّه! أتعتقد فينا أنَّنا نبغض رسول اللَّه ﷺ؟!، ونحرِّم الصَّلاة عليه ﷺ؟! ما هذا يا أخي؟! أنت عشت ثلاث سنوات في هذه الجامعة وعرفت منهجها وعرفت أهلها معرفةً عن كثب ثم الآن تطرح مثل هذا السؤال؟! يا أسفا!

ثم قلت له: هل تعرف كتاب «الصارم المسلول»؟ قال: لا! قلت: كتاب «الصارم المسلول على شاتم الرَّسول ﷺ» ألَّفه ابن تيمية في بيان حقوق رسول اللَّه ﷺ، وبيان حكم من يشتم هذا الرَّسول الكريم - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ -، وأنَّ جزاءَه القتل ولو تاب؛ فلا تُقبَل منه هذه التوبة، توبته بينه وبين اللَّه، قلت: هذا الكتاب الذي لم يُكتَب مثله في هذا الباب.

ثم قلت: وهل تعرف «جلاء الأفهام في الصَّلاة على خير الأنام ﷺ» لابن القيم؟ قال: لا! قلت: هذا الكتاب لم يُكتَب في هذا الباب مثله في الصَّلاة على رسول اللَّه - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ - وقد حاول السَّخاوي وغيرُه أن يكتب مثلَه فما لحقه، هذا في فضل الصَّلاة على رسول اللَّه ﷺ وأنواعها نحن ندين اللَّه بما في هذين الكتابين، ونحن

- واللَّه - نحبُّ رسول اللَّه ﷺ أكثر منكم، وهذا الميدان للاختبار؛ من يأخذ بأقوال الرَّسول الكريم - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ - ؟ من يأخذ بهديه ؟ من يأخذ بسنته؟ من يأخذ بعقيدته ؟

ثم قلت: باللَّه ما رأيك يا أخي في رجل جاء إلى بلد تُعبَد فيه القبور، والأشجار، والأحجار، ولا تقام فيه الصلاة، ولا تُؤَدَّى فيه الزَّكاة، والفوضى فيه سائدة ضاربة أطنابَها يسفِكُ بعضهم دماء بعض، ويسطو بعضهم على بعض. . . ثم جاء هذا الرَّجل وانتشل هذا المجتمع مما هو فيه من الضلال العقائدي والفكري والسياسي والاجتماعي وأقام هو وأنصاره دولة تحكم بشريعة اللَّه وعلى عقيدة إسلامية، أهذا مصلح أم مفسد؟ قال: إنَّه مصلح، قلت له: إنَّ هذا محمد بن عبد الوهاب الذي انطلقتَ من دعوته بمثل هذا السؤال؛ فقال: أستغفر اللَّه أستغفر اللَّه، ثم جعل يُسَجِّل أسماء الكتب التي ذكرتها له.

الشاهد: أنَّ الدَّعوة شُوِّهت، ولا تزال تُشَوَّه، ولكن نقول لهم بيننا وبينكم كتابُ اللَّه، وبيننا وبينكم سنَّة رسول اللَّه ﷺ، وبيننا وبينكم ما دَوَّنَه السَّلف الصالح من عقائد وعبادات وغيرها، فمن ينازع في هذا المذهب وهذا المنهج وأنَّه الحق؟! - فللَّه الحمد - هذا كتاب اللَّه قائم يميِّز بين المُحِقِّ والمبطل، ومنهج السَّلف الصالح يؤكِّد ذلك.

وأسأل اللَّه -تبارك وتعالى- لنا ولكم أيُّها الشباب أن يوفقنا وإيَّاكم لاتِّباع رسول اللَّه ﷺ، وسلوك منهج الخلفاء الرَّاشدين، وسلوك طريق الأئمة المهديِّين في عقائدنا، وفي عباداتنا، وفي أخلاقنا، وفي سياستنا، وفي علاقتنا.

ونصيحتي الأخيرة لكم: أن تَتَّحدوا على منهج اللَّه، وأن يكون لكم موقفٌ شرعيٌّ تُجاه كلِّ منهج يخالف هذا المنهج؛ فقد ذكر ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ وغيرُه الإجماع على وجوب التحذير من أهل البدع وطُرُقِهم[1]؛ لأنَّنا إذا سكتنا وجاملنا أهلَ البدع فإنَّه ستكون النتيجة

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في (مجموع الفتاوى) (٢٨ / ٢٣١ - ٢٣٢): «. . ومثل أئمة البدع من أهل المقالات المخالفة للكتاب والسنة، أو العبارات المخالفة للكتاب والسنة، فإن بيان حالهم وتحذير الأمة منهم واجب باتفاق المسلمين، حتى قيل لأحمد بن حنبل: الرجل يصوم ويصلي ويعتكف أحب إليك أو يتكلم في أهل البدع؟ فقال: إذا قام وصلى واعتكف فإنما هو لنفسه، وإذا تكلم في أهل البدع فإنما هو للمسلمين هذا أفضل. فبيَّن أن نفع هذا عام للمسلمين في دينهم من جنس الجهاد في سبيل اللَّه، إذ تطهير سبيل اللَّه ودينه ومنهاجه=

الُمرَّة هي ضياع الأُمَّة، وقد حصل من هذا الشيء الكثير الكثير؛ فإلى النَّصيحة للَّه ولكتابه ولرسوله ولأئمَّة المسلمين وعامتهم، وإلى التمسُّك بمنهج اللَّه والعّض عليه بالنَّواجذ.

وفقنا اللَّه -تبارك وتعالى- لذلك، وثبتنا على صراطه المستقيم، وحقَّق بنا وبكم الآمال؛ إنَّ ربنا لسميع الدُّعاء.

وصلى اللَّه على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

* * *

= وشرعته ودفع بغي هؤلاء وعدوانهم على ذلك واجب على الكفاية باتفاق المسلمين، ولولا من يقيمه اللَّه لدفع ضرر هؤلاء لفسد الدين، وكان فساده أعظم من فساد استيلاء العدو من أهل الحرب، فإن هؤلاء إذا استولوا لم يفسدوا القلوب وما فيها من الدين إلا تبعًا، وأما أولئك فهم يفسدون القلوب ابتداءً».

عقيدة الأنبياء

-عليهم الصلاة والسلام-

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمدَ للَّه نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسنا ومن سيِّئاتِ أعمالنا، من يهدِهِ اللَّهُ فلا مُضِلَّ له، ومن يُضْلِلْ فلا هادي له، وأشهد أن لا إلهَ إلَّا اللَّهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمّدًا عبدُه ورسولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠- ٧١].

أمَّا بعد: فإنَّ أصدقَ الحديثِ كلامُ اللَّه، وخيرَ الهدي هديُ محمَّدٍ ﷺ، وشرَّ الأمورِ محدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النَّار.

عقيدة الأنبياء -عليهم الصَّلَاةُ وَالسَّلَام- جاءوا كُلُّهم بعقيدةٍ واحدة ودينٍ واحد أخبر اللَّه عنه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وهذا دين جميع الأنبياء -عليهم الصَّلاةُ والسَّلام-، وسَمَّى اللَّه جميعَ الأنبياء -عليهم الصَّلاةُ والسَّلام- مسلمين، والآيات في ذلك كثيرة، هذا الدِّين دينُ الأنبياء.

هذه العقيدة هذا التوحيد يتمثل في توحيد الرُّبوبية وتوحيد الأسماء والصِّفات وتوحيد العبادة، توحيد الرُّبوبية يُؤتَى به كأدلة وبراهين على الكافرين لإلزامهم؛ لأنَّهم يعترفون به؛ فتأتي أدلة وبراهين لإلزامهم بما خالفوا فيه الرُّسُل وكَذَّبوا فيه الرُّسُل وعَانَدوا فيه الرُّسُل الكرام -عليهم الصَّلَاةُ وَالسَّلَام-، تأتي الحُجَج تُلزِمُهم بطاعة الرُّسُل واتِّبَاعِهم وتصديقهم؛ لأنهم ما جاءوا إلَّا بالحقِّ، وهذا الحق دليله هو توحيد الربوبية؛ لأنَّهم إذا كانوا يعترفون بأنَّ اللَّه هو الذي خلق السَّموات والأرض ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥]، ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

تُسَاق هذه الأدلة والحديث عن خلق السَّموات وعن خلق الأرض وعن خلق الإنسان والحيوان والنَّبات والجبال والبحار وتسخير الرِّياح وتسخير الشمس والقمر، كلُّ هذه الآيات دالة على أن اللَّه هو ربُّ هذا الكون وخالقه ومدبِّرُه؛ وبالتالي هو الذي يستحق أن يُعبَد.

فإذا قال الرَّسول ﷺ لأمته اعبدوا اللَّه واجتنبوا الطاغوت كان حقًّا عليهم أن يُهرَعوا إلى الاستجابة، يستجيبون له ويصدِّقوه، وكان لكلِّ نبيٍّ من الأدلة والآيات[1] والبراهين ما تقوم به الحُجَّة على أمته التي يدعوها للحق، ثمَّ تخالفه!

وأريد أن أدخل في توحيد العبادة الذي ضَلَّت فيه الأمم، وبُعِثَت إليهم الرُّسُل لتصحيح هذا الانحراف وهذا الضَّلال في هذا الميدان؛ كان الناس يتَّخذون من عبادة الأوثان ومن عبادة القبور ومن عبادة الكواكب والشَّمس والقمر يتخذون منها في زعمهم مُنطَلَقًا إلى التقرب إلى اللَّه -تبارك وتعالى-، يتقرَّبون إلى هذه المعبودات التي ذكرناها لغرض -في زعمهم- وقصد أن تُقَرِّبَهُم هذه المعبودات، وتشفع لهم إلى اللَّه -تبارك وتعالى- في تحقيق مطالبهم الدنيوية، ويأتي الرُّسُل يوجهونهم إلى طريق الحق وإلى إخلاص الدِّين للَّه -تبارك وتعالى-، ويؤمن من يؤمن، ويكفر من يكفر، ثم في النهاية يأتي عقاب اللَّه -تبارك وتعالى- الصَّارم للمُكَذِّبين.

كما قصَّ اللَّه عن قوم نوح أنَّه أغرقهم بعد أن دعاهم ألف سنة إلَّا خمسينَ عامًا وهم يُكَذِّبُونه، وقال اللَّه ﷻ في شأنهم لما تحدَّث عن الكافرين قال: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ

---

(١) إشارة إلى ما أخرجه أحمد (٩٤٥٢) والبخاري (٤٩٨١) ك/ فضائل القرآن. باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل، ومسلم (١٥٢/ ٢٨٣) ك/ الإيمان. باب وجوب الإيمان برسالة نبيِّنا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته كلهم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نبيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ» وهذا لفظ البخاري.

كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ [النجم: ٥٢]؛ وإذا جاء يوم القيامة يَسأل اللَّه نوحًا هل بَلَّغت قومَك؟ فيقول: نعم بَلَّغتُهم، فيقول: ومن يشهد لك؟ يقول: أُمَّةُ محمَّد ﷺ، وهم يُكَذِّبون يقولون: ما بلَّغتَنا، وما جاءنا من نذير![1] - قاتلهم اللَّه - ؛ لهذا قال اللَّه فيهم: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ [النجم: ٥٢].

وجاء قومُ هود وكذَّبوه فأهلكهم اللَّه بالرِّيح الصَّرْصَر ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧].

ثم جاء قوم صالح فكذّبوا نبيّهم صالحًا؛ فأهلكهم اللَّه بالصَّيْحَة.

وهكذا تتالتِ القُرُون على تكذيب الرُّسُل، وتتابعت الرِّسالات تدعو إلى اللَّه، وتُوَاجَه كلُّ رسالة ويُوَاجَه كلُّ رسول بما وَاجَه به أَسلَافُها الأنبياء السَّابقين.

وبعث اللَّه محمدًا ﷺ خاتم النَّبيين مُتَمِّمًا وَمُكَمِّلًا لدعوات هؤلاء الأنبياء، وجاء كتابُه مُشتملًا على مضامين الرِّسالات كلِّها، ومُهيمِنًا عليها، وفَتح اللَّه قلوبَ أهلِ الأرض أو مُعظمَهم في ذلك الوقت للإيمان بهذه الرِّسالة، ودخلت أُمَمٌ ودخلت شعوبٌ في هذا الدِّين الحق، ورفرفت رايةُ الإسلام على شطر المعمورة في ذلك الوقت أو أكثر.

فَتَنَبَّهَ الأعداءُ والحاقدون للطُّرُق الخبيثة التي يهدمون بها هذا المجد الذي شاده الإسلام؛ فكادوا للإسلام ودَسُّوا من الزَّنادقة ومن الملاحدة من يلبس لباسَ الإسلام، ويَبُثُّ سمومَ الإلحاد والكفر والضَّلال في نفوس كثير من ضعفاء المسلمين؛ فأصبحت الأُمَّة هذا جهمي وهذا معتزلي...

ومرَّ الزَّمان وجاءت الفِرَق الصُّوفية وهي مُرَكَّبَة من أديانٍ شتَّى من الهندوكية من النَّصرانية، من المجوسية، من اليهودية، جاءت الفِرَق في طرقٍ كثيرٍ من ضُعَفَاء المسلمين باسم الإسلام، وشاعت عبادةُ القبور ودعاءُ غير اللَّه، وأصبح مُعظم من ينتمي إلى الإسلام يقرأ القرآن يقرأ نصوص التوحيد لا يفهمها، أصبح معنى لا إله إلا اللَّه: لا

(١) إشارة إلى ما أخرجه أحمد (١٠٨٥٣، ١١١٣٢) والبخاري (٤١٢٧) ك/ التفسير، باب قول اللَّه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ الآية. من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

خالق ولا رازق إلا اللَّه !

كان للمتكلِّمين دورٌ كبير في تجهيل النَّاس بمعنى لا إله إلا اللَّه التي هي رسالة جميع الأنبياء -عليهم الصَّلَاةُ وَالسَّلَام-؛ فَفَسَّرُوها بـ: لا خالق ولا رازق ولا مالك إلا اللَّه. . !، وأخطئوا المعنى الصَّحيح المعنى الأساسي لـ(لا إله إلا اللَّه) وهو لا معبود بحق إلا اللَّه، وإذا كان لا معبود بحق إلا اللَّه فمعناه أنَّه لا ندعو إلَّا اللَّه، ولا نستغيث إلَّا به، ولا نلجأ ولا نَضرَع في الشَّدائد إلَّا إليه ﷻ وحده.

وحتى المشركين كان هذا المعنى يقوم في نفوسهم إذا هم واجهوا الصِّعاب، وواجهوا المشاكل، وواجهوا الأحداثَ الخطيرة التي لا يستطيعون حلَّها، ويعتقدون في قرارة أنفسهم أنَّ معبوداتهم لا تملك حلًّا في مثل هذه الظروف ولا حلًّا لهذه المشاكل، يقول اللَّه ﷻ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤٠ - ٤١].

هذه الحقيقة قرَّرَها اللَّه، وهم لا ينكرونها أبدًا، وما أكثر ما يواجهونها في الأحداث إذا جاءت الأحداث الغريبة ينسون الأصنام، وينسون اللَّات، وينسون العُزَّى، وينسون الملائكة، وينسون الأنبياء، وينسون الصَّالحين، وينسون الكواكب، وينسون كلَّ ما يعبدونه من دون اللَّه -تبارك وتعالى-، وتتعلَّق قلوبهم باللَّه وحده، وتتجه إلى اللَّه وحده مخلصين له الدِّين، ويوقنون في قرارة أنفسهم أنه لا يُنقذهم من هذه الشِّدَة إلا - اللَّه -تبارك وتعالى-؛ ولهذا ما قالوا: واللَّه أنت كذَّاب أبدًا، أَقرُّوا واعترفوا، ما جادلوا في هذا ولا مَارَوْا في هذه الحقيقة؛ لأنها قضية واقعة متقرِّرة كما قرَّرها اللَّه - تبارك وتعالى-.

ومما يُؤسَف له أنَّه لمَّا استشرى داء الفتنة -فتنة الشِّرك ودعاء غير اللَّه والاستغاثة بغير اللَّه واللجوء إلى غير اللَّه في الشَّدائد- بلغ الأمر بكثيرٍ ممن ينتمي إلى الإسلام من عُبَّاد القبور أنَّه في الشِّدة ينسى اللَّه ويتجه إلى عبد القادر والبدوي وإلى الرفاعي وإلى

الدسوقي وإلى العيدروس، وإلى المعبودات من دون اللَّه - تبارك تعالى - ؛ وهذه الأخبار متواترة عن كثير من هؤلاء الضُّلَّال.

من أسباب جهل الناس بحقيقة التوحيد كما ذكرت هو ذلك الخطأ الكلامي في العقائد الذي ألِّف كُتبًا طويلة عريضة في تقرير توحيد الرُّبوبية، ولم يهتد إلى تقرير توحيد الألوهية؛ وإذا رجعت إلى كتب أهل الكلام وإلى كتب أهل التصوُّف وما أكثرها لا تجد لهذه الحقيقة - حقيقة لا إله إلا اللَّه - فيها أثرًا ولا عينًا أبدًا، ما تجد إلَّا تقرير توحيد الرُّبوبية الذي يعرفه المشركون ويعترفون به، كان هذا من العوامل ومن الأسباب الكبيرة التي أوقعت كثيرًا من الناس في الشِّرك باللَّه -تبارك وتعالى- ، وعبادة القبور، واعتقاد أنهم يعلمون الغيب، ويتصرَّفون في الكون، حتى إنَّ بعضهم يبلغ به الأمر إلى أن يدَّعي لنفسه الألوهية مع الأسف الشَّديد!

أحب أن أستعرض بعض الآيات التي تعالج قضية واحدة من قضايا هذا الشِّرك الخطير وهي الذَّبح والنَّذر والطواف وشدُّ الرِّحال والاستغاثة . . أريد أن أذكر آياتٍ واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار تَدمَغُ من يدعو غير اللَّه بالشِّرك والضَّلال، ويقرؤها كثيرٌ من النَّاس.

وبسبب تفسير أهل الكلام لكلمة التوحيد لا إله إلا اللَّه بأنَّه لا خالق ولا رازق إلا اللَّه، وبسبب تفسير بعض المُفسِّرين الذين إذا جاءوا يُفَسِّرون هذه الآيات ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٥ - ٦] أنَّ المراد بها الأصنام، يخطر في ذهنه إلى أنَّ الشِّرك لا يكون إلَّا بدعاء الأصنام، أمَّا إذا دعا رسول اللَّه ﷺ واستغاث به أو، بأبي بكر أو بعمر أو بالجيلاني أو بالرِّفاعي أو بالملائكة أو بغيرهم من الصَّالحين أو غير الصَّالحين هذا ليس من الشِّرك في شيء عندهم؛ بسبب هذا الانحراف في تفسير كلمة التوحيد، وتفسير آيات التوحيد التي تدمغ من يدعو غير اللَّه بالشِّرك الأكبر والضَّلال البعيد.

يقول اللَّه -تبارك وتعالى- في سورة فاطر: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣ - ١٤] آية واضحة في غاية الوضوح في أنَّ غير اللَّه لا

يملك في هذا الكون قطميرًا واحدًا، والقطمير: هو اللُّفافة الرقيقة على النَّواة؛ كم وزنه؟ كم قيمته؟ لا شيء! الملائكة، الأنبياء، الرُّسل، الصَّالحون، الملوك لا يملكون هذا القطمير، كلُّ هذا الكون مُلك اللَّه؛ هو الذي خلقه، هو الذي دَبَّره، وهو الذي أنشأه من العدم، وهو الذي يفنيه ﷻ، وكلُّ من في السَّموات والأرض لا يملكون من هذا الكون الهائل الواسع لا يملكون منه هذا القطمير ولا النَّقير؛ يبيِّن كمال غنى اللَّه -تبارك وتعالى- ، وأنَّه المنفرد بالملك والتدبير، وأنَّ غيره في غاية الافتقار إلى اللَّه، وفي غاية الحاجة، وفي فقر مدقع؛ بحيث إنَّه ما يملك من هذا الكون ذَرَّةً ولا قطميرًا؛ انفرد - اللَّه -تبارك وتعالى- بملكه.

وإذا كان هذا هو الواقع فلماذا يتجه الناس يطلبون من غير اللَّه شيئًا قد يكون من أعظم المطالب؛ قد يكون المطلوب ولدًا، وقد يكون المطلوب مالًا، وقد يكون المطلوب إنقاذًا من شدة، وقد يكون مطالب كثيرة من مطالب البشر ومطالب الحياة؟! يطلبون مِمَّن؟ مِمَّن يملك هذه الأشياء، هذا الذي يجب؛ وهذا الذي يقتضيه المنطق، وصَدَع به مَنطِقُ النُّبوات ورسالاتهم -عليهم الصلاة والسلام-. ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ انتبهوا! ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ هذه حقيقة يُقَرِّرُها اللَّه -تبارك وتعالى- عن الأنبياء والملائكة والصَّالحين وغيرهم والأوثان لو وَقَفْتَ طول حياتك تدعو بأقوى المُكَبِّرَات!

لو فرضنا أنَّ إنسانًا أخذ مُكَبِّرًا عظيمًا وقال: يا رسول اللَّه عند قبره أنقذني واللَّه ما يسمعه رسولُ اللَّه - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام - ولو كان عند القبر فضلًا إذا كان بعيدًا، ولو وقف عند عبد القادر قريبًا منه، يكون أحدهم في الهند أو في أقصى اليمن أو في أقصى المغرب إذا واجه شِدةً قال: يا عبد القادر! فيقع في شرك الرُّبوبية وفي شرك العبادة لماذا؟ لأنَّه أعطى هذا المدعو صفةَ اللَّه علَّام الغيوب، مفرِّج الكروب، أعطاه صفة الرُّبوبية، وهو لا يستفيد شيئًا؛ لأنَّ هذا المدعو من ملايين المخلوقات، كلُّهم لا يملكون قطميرًا، كم نصيبه من القطمير ؟! كم نصيب الواحد من ملايين من الملائكة، من الإنس، من الجن . . كلُّهم إذا اجتمعوا لا يملكون قطميرًا واحدًا؛ فإذا دعوت واحدًا كم يكون نصيب الواحد منهم من القطمير؟ لا يملك أقل جزء من ملايين الأجزاء

من الذَرَّة كيف تدعوه؟! اللَّه قال لك: ما يملكون، ثم أخبرك أنهم لا يستجيبون.

فنحن نقسم باللَّه واثقين أنَّك لو دعوت نبيًّا أو وليًّا أو ملكًا أو جِنيًّا واللَّه ما يسمع هذا النِّداء أبدًا؛ لأنَّ اللَّه قال: لا يسمعون؛ ﴿لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ هذا الدُّعاءَ الشِّركي، قد يسمع دُعاءً آخر؛ كأن تُسَلِّم على الميِّت[1] أو على الرَّسول - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام - ؛ فيبلغه سلامُك[2] أو تصلي عليه قد تبلغه هذه الصَّلاة[3]؛ أمَّا أن تشرك باللَّه -تبارك وتعالى- ؛ فإنَّ اللَّه يصون مسامعَ أنبيائه ومسامعَ ملائكته ومسامعَ الصَّالحين من عباده أن يسمعوا هذا الهُرَاء الشِّركي أبدًا؛ لأنَّ هذا واللَّه يؤذيهم أشدَّ الأذى، ولا يفرحون به أبدًا؛ فاللَّه يُسدّ كلَّ المنافذ أن تصل هذه الأصوات الخبيثة إلى مسامعهم ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾.

افرض -من باب فرض المستحيل- أنهم سمعوا ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾، لو فرضنا من، باب فرض المستحيل أنَّ هذا الصوت يصل إلى من دعوته أو إلى مجموعة تدعوها من دون اللَّه لا يستجيبون، لماذا؟ لأنهم لا يملكون شيئًا؛ لم يعطهم اللَّه حقَّ الإجابة، حقُّ الإجابة للَّه الذي يملك هذا الكون، أمَّا الفقراء المساكين الضِّعاف أمام اللَّه الذين لا يملكون قطميرًا كيف يُلَبُّونَ دعوتَك؟ وكيف يستجيبون لك وهم لا يملكون شيئًا؟!

فهذه الأشياء تحسم مادة الشِّرك وتستأصل شأفته عند كلِّ من يعقل عن اللَّه -تبارك وتعالى- مثل هذه التوجيهات ومثل هذه التصريحات الصَّادعة بهذه الحقائق الكبرى

---

(١) انظر (مجموع الفتاوى) لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ (٢٤/ ٣٣١).

(٢) إشارة إلى ما رواه علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبي ﷺ أنَّه قال: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا وَلَا بُيُوتَكُم قُبُورًا فَإِنَّ تَسْلِيمَكُم يَبْلُغُنِي أَيْنَ كُنْتُم» أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢/ ٣٧٥) والضياء المقدسي في (المختارة) (٤٢٨) وأخرجه إسماعيل القاضي في «فضل الصَّلاة على النَّبي ﷺ» برقم (٢٠) عن النَّبي ﷺ أنَّه قال: «لَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا، وَلَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ وَسَلِّمُوا حَيْثُمَا كُنْتُمْ فَسَيَبْلُغُنِي سَلَامُكُمْ وَصَلَاتُكُمْ» وقال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في تحقيقه: صحيح لغيره

(٣) إشارة إلى ما رواه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبي ﷺ قال: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُم قُبُورًا وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُم» رواه أبو داود في (سننه) ك/ المناسك، باب زيارة القبور برقم (٢٠٤٢)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في (صحيح سنن أبي داود) برقم (١٧٨٠) (٦/ ٢٨٢).

العظيمة التي لا يليق بعاقل أن يجهلها أو يتجاهلها ؛ فيقع في حمأة الشِّرك باللَّه -تبارك وتعالى- .

ثم أخبر اللَّه أنَّ هذا الدُّعاء شرك، شرك خطير وأنَّ هؤلاء الذين تدعوهم وتستنجد بهم وتستغيث بهم وتطلب منهم وتُعَلِّق قلبك بهم يصبحون خصومَك يوم القيامة، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ هذا نص في أنَّ دعاء غير اللَّه شرك باللَّه -تبارك وتعالى- ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ ما هو هذا الشِّرك؟ هذا الدُّعاء الذي ساقه اللَّه في هذه الآيات محفوفًا بالأدلة الواضحة أنَّه لا يفيد ولا يجدي، ولا أهله يملكون شيئًا، ولا يسمعون منه شيئًا، هذا كلُّه شِرك باللَّه -تبارك وتعالى- ، يوم القيامة هذا الذي يدعو البدوي والذي يدعو الدسوقي والذي يدعو الحسين الذي يدعو عليًّا والذي يدعو محمدًا والذي يدعو عيسى يوم القيامة يقف النَّبي - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام- ويقف الرَّجل الصَّالح ويقف الرَّسول ويقف المؤمن الذي يدعونه من دون اللَّه، ويتبرءون إلى اللَّه -تبارك وتعالى- من هذا الشِّرك، هذا الشِّرك إن كان المدعو رسولًا يقول: أنا بلَّغتكم وحذَّرتكم هذا الشِّرك، ودعوتكم إلى توحيد اللَّه وإلى إخلاص الدِّين له، وإن كان عالمًا وصالحًا يقول: واللَّه أنا كنت أُدَرِّس - إذا كان مُوَحِدًا سلفيًّا وليس خرافيًّا قبوريًّا - وأقول: إنه لا يجوز دعاء غير اللَّه -تبارك وتعالى- ، وأنه شرك باللَّه -تبارك وتعالى- .

فهنا نستحصل من هذه الآية: أنَّ اللَّه -تبارك وتعالى- انفرد بالمُلك؛ ملك هذا الكون كلُّه سمواته وأرضه وجباله وبحاره وأشجاره وأنهاره وحيواناته وجِنُّه وإنسه وملائكته كلُّ هذه الأشياء مملوكة للَّه -تبارك وتعالى- ، لا يشاركه أحدٌ في ذَرَّة مِّنها ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ .

وأنَّ دعاءَ غير اللَّه شركٌ باللَّه -تبارك وتعالى- ؛ لا يُسمِعُه اللَّه -تبارك وتعالى- ملائكته ولا أنبياءه ولا الصَّالحين من عباده إذا هم دعاهم أناس بُلَهاء واستنجدوا بهم من دون اللَّه -تبارك وتعالى-، وأنَّه على فرض أن يحصل منهم سماع لهذا الهراء فإنهم لا يملكون حقَّ الإجابة، وأنَّ هذا الدُّعاء شرك باللَّه -تبارك وتعالى- .

ونأتي إلى آيات من سورة الأحقاف تؤكد أنَّ دعاء غير اللَّه كفرٌ وشرك وأنَّه ضلال،

قال اللَّه -تبارك وتعالى- في سورة الأحقاف: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٤ - ٦] يعني: سَمَّى دعاء غير اللَّه هنا عبادة، عبادة غير اللَّه هي شرك، لا أحد أضَّل ممن يدعو غيرَ اللَّه - تبارك تعالى - ، تصور الضَّلال وكلَّ أنواع الضَّلال فتجد أنَّ أضل النَّاس وأغرقهم في الضَّلال هو الذي يدعو غير اللَّه -تبارك وتعالى- ، وقبل هذا ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ هنا استنكر اللَّه -تبارك وتعالى- دعاء غيره؛ ثم قال: هؤلاء الذين تدعون ماذا يملكون؟ هل يملكون شيئا في السَّموات ؟ لا يملكون شيئًا! هل لهم شرك في السَّموات؟ ما عندهم شيء! عندكم أدلة؟ أظهروها ما عندكم أدلة! عندكم أثارةٌ -بَقِيَّةٌ- من العلم تستدلون به على جواز دعاء غير اللَّه؟

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ لأنَّه لا يُدعى إلا الخالق - جلَّ وعلا-، أمَّا المخلوق فهو عبد ويتجه بالدُّعاء إلى خالقه فكيف تدعونه؟! هذا المخلوق الذي خلقه اللَّه -تبارك وتعالى- هو عبد من عبيدي كيف تدعونه وهو عبد ولا يملك شيئًا في هذا الكون وليس له مشاركة؟! لأنَّه لا يُدعى إلَّا من يملك، فإنَّكم تطلبون من مسكين ليس له مُلك، وليس له مشاركة في ملك شيء من هذا الكون، أروني أيَّ جزء من السَّموات أو من الأرض خلقه عيسى أو خلقه إبراهيم أو خلقته الملائكة أو خلقه صنم من الأصنام أو وثن من الأوثان، لا شيء، ولا يملكون الأدلة مهما افترضنا ضعف هذه الأدلة، فلا يملكون ولا معشار دليل ضعيف على أنَّ غير اللَّه يَستحق الدُّعاء من دون اللَّه أو مع اللَّه -تبارك وتعالى- ، تحدَّاهم أن يأتوا بالأدلة ولا يملكون، ما قالوا: الأدلة عندنا.

أبو لهب وأبو جهل وغيرهم من الوثنيين وفرعون وهامان وقارون وغيرهم، واللَّه ما منهم أحد يقول: أنا شاركت في خلق السَّماء، أو شاركت في خلق الأرض، أو أملك الشَّمس، أو أملك القمر، أو أنا خلقت ذلك الجبل، أو هذا الجبل مُلكِي أنا أوجدته، لا أحد يقول هذا الكلام؛ مهما ضَلَّ الإنسان وانحرف لا يصل به الضَّلال والانحراف إلى

أن يقول أنا عندي دليل والدَّليل هو هذا .

ما يملك ثم عقَّبَ اللَّه هذا بقوله : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ لو وقفت إلى يوم القيامة وأنت تدعو يا فلان! يا رسول اللَّه! يا عيسى! يا أبا بكر! يا عمر! تدعو واللَّه لا يسمعون، ولا يستجيبون؛ هنا قال : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ .

وقد أخبرنا اللَّه في سورة فاطر أنهم لا يسمعون هذا النِّداء من أساسه فكيف يستجيبون؟! ثم بَيَّن اللَّه -تبارك وتعالى- أنَّ هذا الدعاء عبادة لغير اللَّه؛ فأنت إذا دعوت حيًّا غائبًا أو ميتًا فأنت بهذا الدُّعاء جعلته إلهًا مع اللَّه، وجعلته شريكًا مع اللَّه -تبارك وتعالى- في العبادة .

﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾ هذا النَّبي الذي تدعوه يصبح عدوَّك، وهذا الولي الذي تدعوه يصبح عدوَّك، وهذا المَلَك الذي تدعوه يصبح عدوَّك! وهذا الصَّديق يصبح عدوَّك!، ويتبرأ من هذا الشِّرك الذي وقعت فيه . هذه العبادة التي تقدَّمت بها ظلمًا وعدوانًا هو نفسه لا يرضاها ولا يقبلها ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾ فسمَّاها عبادة، والكفران هو الجحود، يقول: إنَّني ما أمرتك أن تعبدني، ولا أردت منك هذا الأمر، بل كنت أُحَذِّرَكَ وأُنذِرُكَ أنت وأمثالَك من دعائي ودعاء غيري من مخلوقات اللَّه -تبارك وتعالى- مهما علا شأنهم من الأنبياء والملائكة وغيرهم .

نستفيد من هذه الآيات ومن هذا التعليق الضعيف عليها أنَّ اللَّه -تبارك وتعالى- قد أقام الحُجج وأقام الأدلة على بطلان دعاء غير اللَّه، وأنَّه شرك باللَّه، وأنَّ هذا لون من ألوان العبث الدَّنيء أن تدعوَ من لا يسمع دعاءَك ولا يستجيب لك، وهو مع كونه عبثًا هو كفر باللَّه، وهو شرك باللَّه، وهو تأليه لغير اللَّه -تبارك وتعالى- ، وأنَّ هؤلاء المعبودين المدعوِّين الذين كنت ترجوهم وتظن أنهم ينقذونك من الشَّدائد يتبرَّؤون منك، ويخذلونك أحوج ما تكون إليهم؛ وفي هذا عبرة لمن له عقل وعنده وعي أن ينصرف عن عبادة غير اللَّه -تبارك وتعالى- وعن دعاء غيره، ويفرد اللَّه -تبارك وتعالى- بعبادته، ولاسيَّما هذا الدُّعاء الذي تحدثت عنه هذه الآيات، وأقامت فيه الحُجج والبراهين على

بطلانه وأنَّه شرك.

ونكتفي بهذا القدر، نسأل اللَّه -تبارك وتعالى- أن يتيح لنا مثل هذه الفرص التي نرجو أن نستفيد منها نحن ويستفيد منها إخواننا، وصلَّى اللَّه على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه.

* * *

فهرس الموضوعات

أهمية التوحيد ٥
التوحيد أصل الأصول وقاعدة في الأسماء والصفات ٢٧
التوحيد أولاً ٤٣
حق اللَّه على العباد ٦٣
التوحيد يا عباد اللَّه! ٧٥
لمحة عن التوحيد ٨٩
تفسير كلمة التوحيد ١٠٥
وجوب الاتباع والتحذير من مظاهر الشرك والابتداع ١٢١
عقيدة الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ١٤٧

* * *